زمن ما كان لي

قصص

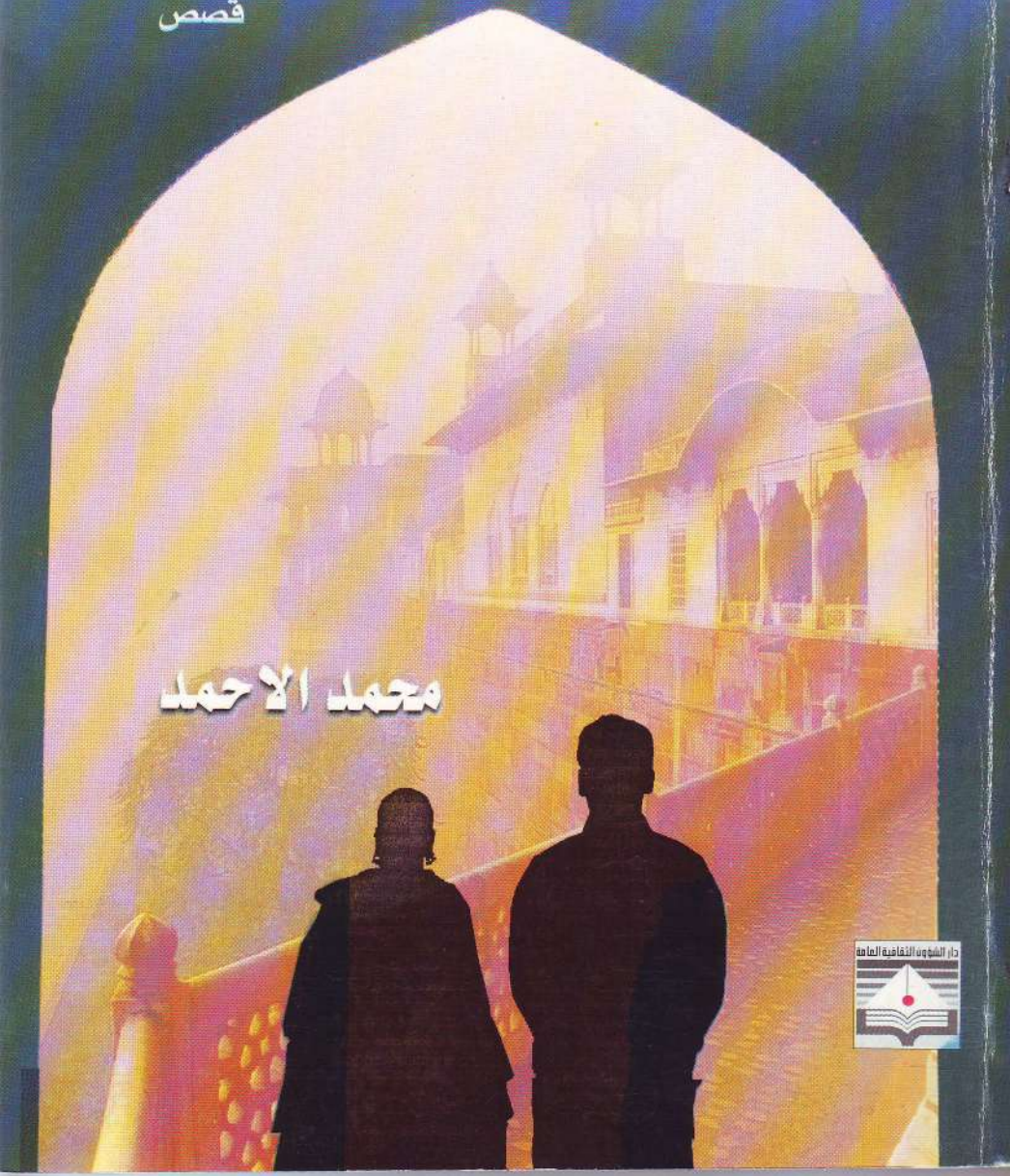

محمد الاحمد

دار الشؤون الثقافية العامة

محمد الاحمد

كاتب عراقي ولد عام ١٩٦١ .

اصدر الكتب التالية :

★حركة الحيطان المتراصة (رواية) بغداد ١٩٩٨ .

★بعد الجمر .. قبل الرماد (قصص) دار الشؤون الثقافية ١٩٩٩ .

★جمرة قرار ابيض (قصص) بغداد ٢٠٠٠.

أ★ربعُ وأربعون متوالية (قصص) ٢٠٠٠ .

★ما بين الحبَ والحبَ (قصص) ٢٠٠٢ .

★يكتب بشكل دوري دراسات أدبية في تحسس الأدب الجاد في الصحف والمواقع المحلية والعربية .

وزارة الثقافة

الغلاف: ياسر بدر طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة السعر: ١٥٠٠ دينار

مجموعة قصصية قصيرة

زمنٌ ما كان لى

محمد الأحمد

الطبعة الأولى – بغداد ٢٠٠٧

دار الشؤون الثقافية العامة
حقوق الطبع محفوظة
تعنون جميع المراسلات الى
المدير العام ورئيس مجلس الادارة
السيد فاروق خضر الدليمي
العنوان:
العراق ـ بغداد ـ اعظمية
ص. ب. ٤٠٢٣ـ فاكس٤٤٤٨٧٦٠ـ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤
البريد الالكتروني dar - iraqculture@yahoo.com

رقم الايداع في دار الكتب و الوثائق بغـداد (٧٨) لسنة ٢٠٠٧

بلون اشتهيه، زمنُ الرواية هذا:
أتمناه
أن يحوطني كضوء غامر،
يغمرني كسرد ساحر...
يغسلني كماء هادر، يخترقني كتيار،
كنشوة، كاجتياح،
كحنين مباغت...
كي احبك أكثر!

زمن الرجل الآخـــــر

لم أكن أدري إلى أين ستصل بي الخطوة التالية؟

بقيت استمع دون تركيز لما تقوله بتواصل كسير عن خسارتها الحياتية، كنت شاردا مع تلك التي صيرتني اتابعها بشغف مُسكر متداخلة بالظلال المتدرجة وكأنها لم تكن ظلالا متتابعة بتسلسل فحسب، و إنما ملحقة بصور ملبية ابتدعها فنان مقتدر يعرف إمكانية ريشته الطيعة فاعطته بيسر ما لم تعطه لغيره.

كانت الظلال أداته البالغة، ولم تكن له أية أداة غيرها تثبت مقدرته، فاعطى عالما متكاملا.. فيه النقاء، ونقيضه. عالم تكدس في عمق عميق، وانتشر في بعد مكين.. كنت أقول لها، ما لم يكن بذهني. كأني افتعل سماعها واصغائي وانا ليس كذلك. كان ذهني مفتوحا إليه، وحده.. ذلك العمق الذي لم تكن تريد أن تطلعني عليه .. كأنه ثالثنا ويضحك عند كل هروب، ضحكة رنانة تجلجل في الفضاء المغلق..

هادرة بحلاوة واثق مقتدر، يدري أين تحل به القدم.. بدت لي أجمل الضحكات على الإطلاق ..

بقيت أتأمل الخطوط المتقاطعة، المترابطة مع أخرى غيرها، وهي تشكل جملا تقول، ولا تصمت. وكأنها بداعة لا يمكن لإنسان أن يعبرها، ممتدة ومتواصلة بعمق. أتأمل الخطوط التي لم تكن خطوطا ظاهرة، وحسب .. بل كانت حقيقة شاخصة استطاع بمقدرة العارف أن يعطيها ببروز معان كبيرة، عصية ، قريبة إلى الخطوط التي ترسمها اليد المجردة من الفرجال أو المسطرة .. كأنه قد رسم العصي الدقيقة، وأغمسها في الحبر، ولم يكن قد وضع عاكسة ضوء في مكان ما فاشرق بدرجة قياسية جعل الفرح غامرا، و أعطى العصا الواحدة ظلا عميقا.. افترش أمامي عالما مشوقا، تنتظرني قراءته، وحقا كنت أحدق غير مصدق، منغمس في محاولة اكتشاف ما بدا لي واضحا.

بقيت مجموعة أخرى بين أصابعي اقلبها كأني قد درست هذا الحيوان البحري الذي بدا شوكي الجلد، نجمي الشكل رابضا بين الصخور عند السواحل الرملية، ومن دقة الصورة استطعت أن أرى بوضوح سطحين: سطح علوي

داكن يسمى السطح الظهري، وسطح سفلي فاتح اللون هو السطح البطني، ويدعى أيضا بالسطح الفموي، ويحتوي السطحان على أخاديد الحركة، ومنهما تخرج مجاديف على شكل اذرع.

راحت تفتعل عدم المبالاة بالذي سحرني وتعدّ نفسها الى ما تريد.. تركتني أحاول اكتشاف الكيفية الذكية لهذا الإنسان الذي لم اعرفه.. كالمبهور بصدق و إعجاب إلى ما عمل به.

صورة "يوغلينا" تتكاثر بطريقة الانشطار الطولي البسيط.. فيها نواة منقسمة الى نواتين، والسوط مكونا سوطين، وكذلك البلعوم والمخزن ثم انقسام الجسم طوليا ويكون فردين مستقلين. وصور أخرى لديدان مسطحة، حيوانات ملساء مضغوطة من السطحين. ديدان دقيقة الملامح، كأنها ديدانا شريطية وحيدة الجنس. بقيت أحدق في صورة تالية لجسم "الهايدرا" في المياه العذبة، وهي ملتصقة من قاعدتها على أوراق وسيقان النباتات المائية .. لقطات أخرى لشعب مرجانية، وشقائق البحر متناثرة بشكل غابات بديعة نامية في قيعان المحيطات.. أحياء مجهرية، لن تهم إلا مختصا في علم الأحياء.. نماذج متناهية في الصغر، كبرت، وصارت حية بالغة الدقة.. وثمة أخرى لحشرات

بنية اللون تكسو جسمها طبقة من مادة خضراء كأنها لزجة لشدة وضوحها، يتراوح طول الواحدة من (٣ - ٥) سنتمترات لها رأس وصدر وبطن..

لم أر ذلك الرجل، ولم أتعرف عليه قالت أنه فض التعامل، يصعب عليها التفاهم معه، كل ذلك بسبب عدم قدرته معها على الإنجاب.. بقيت الدمعة تنزل وراء الأخرى كلما كانت تروي لي من سيرته.. عرفت منها بان زواجهما كان تحديا بعد قصة حب عنيف.. لكنه تغير إلى ما لا تستطيع أن تصفه بعد أن كان وديعا وودودا.. وتفوح منه رائحة (الهايبو[1]).

أراه الآن في صورة فوتوغرافية علقت بنسخ عدة هنا، وهناك على الجدران.. بلحية اشرأب بياضها بصفرة الغليون الذي رسم دخانه دوائر محلقة بتسلسل منظم، وقد غطى عينيه بنظارة سوداء قاتمة، فلم استطع أن أدقق بملامحه.

ــ مثله يبقى خالدا بفنه.

---

[1] حامض يستخدم لإظهار الصور الفوتوغرافية.

صور ما قدرت على عدها، ملأت أرجاء البيت، موضوعات حية لا تحتاج أي تعليق.. يعرف حدود عدسته، ومساحتها.. فاقتطع عاملا كاملا، له العمق الفاعل بأكثر من الكلام. كأنه يدري كم هي مكلفة الأسئلة، فأجابها دون عناء.. مشكلة عمقا حقيقيا لما أردت السؤال عنه.. فكل مجموعة وثقت مرحلة من حياته، ومنجزه العبقري العظيم.

ــ ألهذه الدرجة يعشق الصور؟

سألتها عندما خرجت ألي بكامل زينتها.. كأنها أوشكت أن تبوح بكل شيء، وان تكشف العمق المجهول لذلك الزمن الذي تجمد.. لكنها لم تفعل سوى أن تمط شفتيها بسخرية، وتدخل الى المطبخ.. أردت سؤالها عن المرأة التي لا تشبهها وبدت لي حاضرة في اكثر من مجموعة.. جعلني ذلك عاجزا عن كل شيء، بقيت انتظر، وكان هو يضحك بتواصل كأنه يواصل قوله:

ــ قبضت على الزمن أوقفته في تلك العلبة التي أسميناها كاميرا.

وقفت عند صورة كأني اعرف المكان الذي التقطت فيه، وكأني عشت فيه مدة طويلة، ولي فيه ذكريات عميقة اردت أن أجد فرصة للتذكر، لكنها أطلقت ضحكة مفتعلة فلقلت اتزاني، كدت احلق في مدى الفضاء المفتوح المكبل

بطوق فراشات ملونة تسعى الى احتراقها. شعرت كلما حولت نظري الى حلاوة هذا البيت، بنظامه وحلاوة مقتنياته.. عرفته نبيلاً، وإنسانيا كامل الحضور في كل غياب ..

أوشكت على التراجع. لكنها حضرت من المطبخ في اللحظة الأخيرة تحمل قدحاً من عصير الليمون، قبل أن انسل كاللص من هذه الصومعة، واترك كل النزوات الى من يقدرها بأقل قيمة من الإنسانية التي رأيتها، حدجتني بنظرة عتب مرير، وهي تقول:

ـ عليك إبدال ملابسك؟

بقيت كالحائر وجوفي يلتهب عطشاً، لا ادري من اين تبدأ الخطوة، وأنا انظر الى نفسي كأنني اكتشفها مع هذه المرأة في بيت مغلق.. كانت تحدثني بأنها اشترت ملابس كثيرة، وبضمنها ملابس أطفال لمختلف المراحل.. وراحت كالطفلة، تخرج لي لعبها، و هي تضحك بسعادة عفوية، كأنها في حلم يتحقق .. كنت انظر إلى صور صقور تنقض من أعالي شاهقة على فرائسها وجبال جليدية بيض منعكسة على الماء وشكلت مثلثاتها معينات زخرفية بديعة.. أطفال سعداء يذهبون إلى المدارس، مكتبة في قبو عميق بدت كأنها تحمل ألغازا، تغري بالقراءة، تغري بالاكتشاف.. امرأة

يحتضنها زوجها وتنظر بطرف عينيها إلى آخر، طبيبة تستأصل جنيناً عمره ثلاثة اشهر، امرأة ميتة في المستشفى، قبل الولادة، ومعها الجنين.

ـ حتى علبة الحليب والرضاعة .

وفتحت دولاباً، كان مليئاً بلعب الأطفال.. وهي تتقافز مترا قصة كالمهووسة ..

ـ أحقاً سيكون لي طفل، وسأهبه كل هذي اللعب؟ ..

بينما بقيت أنا وجلاً لا أدري ماذا سأفعل في الخطوة التالية.. تقدمت مني ضاحكة بضجة أوشكت أن تستفز فيَ همجيتي.. عيناها واسعتان ، وشفتاها قرمزيتان مليئتان بهمس خفي.. فقلت:

ـ كيف تجرأتي على إحضاري إلى هنا ..

ـ أنت خائف؟

لم أكن كذلك، ولكن الصمت استمر يملأ الفواصل.. وبقيت انظر إليها، قامتها الهيفاء ببعد أهيف يستفزّ الدم في العروق، ويضج بها ضجيجاً يهددها بقسوة.. أوشكت أن اقترب، لامزق ذلك الاحتدام الصاخب، ولكني اكتفيت بلمسة يدها التي تفيض دفئاً شهياً. وعيني معلقة الى صورة انتظمت بتناسق فني رائق.. فقلت :

ـ أود أن نغير المكان؟

أخذتها من يدها، ودخلنا إلى غرفة أخرى وفى الغرفة صارت أمامي صورة جداريه (٢ × ٥م) ملئت الذي أسند إليه سرير النوم.. من اليمين عازف بيانو أشعث الشعر، طويلة، مقطب الحاجبين بقسوة أب مؤنب. لم أتأكد من الوهلة الأولى انه (بتهوفن)، و إلى جانبه (باخ) يضع قوس الكمان على صدغه كأنه ينتظر إشارة بدئه بالعزف وآخر لم اعرفه يحتضن آلة (التشيلو) العملاقة جالسا على طرف الكرسي دون ان يستند اليه، وخلفه (بليغ حمدي) يدخن سجارته، واغلق عينيه بقوة. بينما (جواد سليم)، و(بيكاسو) كانا ينظران بدقة الى عمل كل منهما، كأنهما يتبادلان الرأي بالايماءات.. وبقي (كازنتزاكي) يوزع ابتسامته الضيقة بين (نجيب محفوظ)، والزوج الذي ميزته القبعة، والنظارة الداكنة. ولم اعجب بتفاوت العصور التي عاشها هؤلاء الفطاحل في تلك اللحظة التي جمعتهم مع العشرات من الذين لم اعرفهم ، و إنما عجبت بذلك التداخل العميق، وكأنه النقطة التي يلتقي بها الزمن عندما تصبح الكتلة صفرا بعد أن انطلقت بسرعة الضوء نحو الأعلى وعادت إلى مكانها. بقيت أرنو ورغم ذلك بقيت ضحكته تجلجل خلفنا حتى وليت الأدبار خارجا دون أي عذر.

زمنٌ متوقف

التقيته مصادفة، أثناء عبوري الشارع متعاكسين في الوجهة كل يمشي إلى غايته. ولم اكن في حالتي الطبيعية، إذ كنت قلقا جدا بشأن ابنتي الوحيدة، بعد أن دخلت زوجتي إلى الصيدلية تسأل عن الدواء، ولم تخرج منها، ودخلت وراءها بعد أن سئمت الانتظار وجدت كل الوجوه لا اعرفها، وبقيت حائرا كالمخذول ولا ادري في أي مكان سأجد أما هلعة تركت ابنتها في المستشفى، تعاني سكرات موت قائم، وتبحث في كل الصيدليات عن دواء لم تجده! .. كان أمرا مروعا عندما بقيت انظر طويلا إليه، واستبد بي ارتجاف مقيت، احترت في تفسيره من غير تصديق، كما حلم ما، بين زحمة تناقضات تداخلت ببعضها.. كأنما عينيه المتلألئتين قد وقفتا شاخصتين عند عينيّ لا تريدان أن تنخفضا.

كان ذلك عصر يوم غائم سماؤه ملبدة بغيوم قاتمة.

قال لي: كأنك لم تتغير..

تدافعت كلماتي واحتضنته من جديد بعفوية ثرة بالشوق الكثيف،

وقلت: أما أنت فقد غزاك الشيب!

اطرق برأسه إلى ارض الشارع كشيخ منهوك القوى أخذته نوبة سعال هزته هزا عنيفا، ولحظت ملابسه المتسخة جدا، وكأني اقف إلى رجل آخر غير الذي عرفته أبان تلك الأيام في غاية الأناقة، والنظافة، وفي غاية النبل وأنقذ حياتي عندما أصابتني شظية اخترقت بطني وقتلت من كان خلفي.. في حينه، كادت تجهز على حياتي، ذلك الموقف البطولي لم أنسه ما حييت.. فأنا مدين له بحياتي، ولا ادري ماذا سأقول له، وماذا سأفعل من اجله؟ ..

قال: ها هي الدنيا.. لم أرك فيها منذ ستة عشر عاما أتذكر اني سلمتك نازفا إلى وحدة الميدان الطبية ...

فأكملت: عندما خرجت من المستشفى بعد عدة اشهر أخبروني انك أسرت؟

قال: ستة عشر عاما متواصلة!

أردت أن أقول له أشياء كثيرة ولكني ..

قلت: أتذكر قبل أن أصاب كنت تحدثني عن زوجتك الحامل..

ضحك عاليا كعادته.. تضرج وجهه خجلا ..

قال: ها أنت تراني قد هرمت وأصبحت جدا.

لم تفارق عيني عيناه لحظة واحدة و كأني نزلت إلى عمق عينيه، ووجدتهما تخفيان أشياء كثيرة كأنهما مغمورتان بفيض من دمع أوشك أن يسح على خديه. عيناه كانتا جاحظتين إليّ، حارتين بالألم قالتا كلاما متزاحما بعد أن خبا بريقهما ذاك واستحالتا إلى شاهدتي أسى عميق، لم استطع أن ألم بحدودهما المتداخلة كسورتي ماء تنزلان بي مجبرا في عمق غير مدرك... كنا صديقين حميمين نتقاسم معا العيش في ملجأ واحد ونقاتل في خندق واحد، حتى إجازاتنا كانت في وجبة واحدة، يفهمني وافهمه.. حتى اكتسب بعضا من طباعي واكتسبت بعضا من طباعه، أثارت علاقتنا الحميمة كل الحاسدين.. حدثني عن أفراد عائلته وحدثته عن عائلتي، عن أحلامه و أحلامي، وكنت أسال عن حضوره الفضي كلما صادفت أحدا من الأصدقاء الذين كانوا معنا في تلك الحرب..

بقينا في منتصف الشارع، وتمر من حولنا السيارات مسرعة.. تزعق وتزمجر بعنف، فألفنا الضجيج المتواتر من

السيارات التي ارتبكت في الشارع، بسببنا.. كانت أياما حافلة بالموت عبرت إلى غير رجعة، والدوي الذي يملأ الذاكرة بقي يصم آذاننا عن منبهات العربات التي تريد أن تمرق عبر الشارع الذي اضطرب السير به.. أحيانا كان سائقوها يطلقون علينا الشتائم، ولم نكن نبالي بأي شيء، كأننا لم نشعر بشيء حولنا، وكان ذلك الدخان المقيت يتسرب من خلف المتاريس التي كانت تحمينا من غباء القنابل القاهرة.. نظرت إلى وجهه وكان يحمل ندبة كبيرة و جديدة، وقبل أن اسأله قال بأنها حدثت له هناك ..

أيامنا تلك حافلة بالحب، و حافلة بالتحدي..

قال لي: هل تزوجت؟

قلت: لي ابنة في سن الزواج، ولكنها مريضة الآن ..

أوشك أن يهب لفعل شيء ما من اجلي كما عهدته، و لكني اكتشفت ثمة غصة ما كانت مليئة بالقهر بقيت مترسبة في نفسه جعلتها الدموع المترقرقة من عينيه تنكشف. مرت اللحظات عاجلة محملة بالنشوة، كأن السنوات التي مرت ولم أره فيها، أزيحت، ولم يبق منها بيننا سوى هذه الفاصلة الآنية فكدت أبوح له عن كل مخاوفي بشأن ابنتي التي ابحث لها عن دواء. وكنت أود أخذه معي إلى البيت لألاعبه الشطرنج.. كان الوحيد الذي يغلبني على الدوام، إذ يبتكر

خططا لم اطلع عليها أبدا و يحفظ الكثير من دسوت العباقرة، ويجيد التحليل الصائب للتنقلات.. يجمعنا اللعب ويغمرنا التحدي فتفرعت الدسوت الطويلة إلى شجون، وحكايات نغتسل فيها من أزماتنا التي كانت رغما من صعوباتها ونربأ عن مسالكها، لأنها لم تكن إلا أشواقا إلى الأهل والأحبة... عسى أن أزيح البؤس الذي ملأ عينيه الجميلتين.. تزاحم الموقف متداخلا ببعضه وتداخلت الأسئلة العاجلة بحيوية تلك البراءة التي عهدناها ببعض، وبقي الصدر يخفق بفرح غامر كأنه لا يستكين، ولم أكد انطق بدعوتي، حتى صاحت زوجتي خوفا علينا من أن تدهسنا السيارات المسرعة، التي كانت في الضفة الأخرى من الشارع وهي تتقدم علينا متراكضة و تحمل في يدها علبة الدواء الذي سينقذ حياة ابنتنا، وقبل أن نتحرك انهل مطر كثيف كالدفق الهائل بللنا في لحظة، وأكملنا الخطوات كل إلى غايته مفترقين متقهقرين بالخطو ومتندين باللفتات لبعضنا بعض، كأن المطر عجّل بحسم اللقاء، وصار عندي في تلك الأثناء إحساس منذ فارقته بأنها آخر مرة أراه فيها.

زمن بحجم الأفق

ذات صباح ما، وفي مكان ما. نهض من فراشه الوثير، إذ خنقهُ العرق المتصبب من جبهته بعد أن سالت قطراته وصارت في أنفه، حدق في الأفق من خلال زجاج النافذة التي تكثف ما تقاطر من أنفاسه الليلية على زجاجها، ولم ير شيئاً، فمسح بإصبعيه خطا لسعه بهما برد سطحها النظيف، وودّ لو يضع خدّه عليه لتسري إلى جسده تلك اللذة ، ولكنه قبل أن يقرب خده نظر إلى خط الإصبع المتوازي مع خط الأفق، وراح يقهقه بجنون كمتعجب غير مقتنع هازا رأسه كحمار يشم رائحة أنثاه ، فنظر إلى إصبعه الغليظ وقال:

ـ إصبعي بحجم الأفق فكيف لو نظروا إلى كلي؟

قرّب إصبعه من إحدى عينيه مغمضا الأخرى، وهو يعيد ما قاله لنفسه متعجبا، وراح يقرب كفه إلى عينيه بين لحظة وأخرى مدندناً أغنيته بحزن:-

ـ كل شيء بحجم الأفق حتى إبريق الشاي.. كلما المسه يكون حجمه الأفق!.

تناول مفكا وقرر إصلاح علبة السردين النائمة في رفّ منسي من المطبخ، بعد أن هرب منها السمك إلى جهة القمامة، وراح يتأمل وزغا[1] على الجدار، ودنا منه وقال بصوت عال لأجل أن يفزعه.

ـ حتى أنت أيها الديناصور أصبحت بحجم الأفق.

---

[1] سحلية: أبو برص

WWW عيناك.com[1]

*كنت أقول لعصفورتي الوديعة:

ـ عيناك اللتان لا تطرفان نجلاوان وعميقتان .

صورتها في واجهة الحاسوب تطالعني كل لحظة. مذ وقعت بها على شباك المعرفة (الانترنيت) وجدتها تناسبني تماما.. تلهب خيالي، تلهمني لحني الذي أتمناه، وكان ذلك السر الذي يملأني، واستغلق فضه. منهلي الذي لن ينضب، ولا اعرف أن اسميه سوى انه إحساس عميق يملأني على الدوام، ويجعلني بتمام الانتشاء كلما فكرت به، وتحل بي حمى عصية كأني أغادر عالمي محلقا، طائفا، سابحا بلا وزن ، أو كتلة لا يجذبني شيء .

---

[1] دبليو دبليو عيناك دوت كوم.. كانه اسم موقع على الانترنيت..

تتشكل جمل الموسيقى أمامي بلا عناء صياغة، إذ لم اك يوما فارغا منها ومبتهجا. كنت أسير بنغمي أعطي لكل عازف معزوفته مقسما الوقت على الركود موزعا النسمات على كل مختنق. وكانت هي بداخلي تمشي بخيلاء وتطوف في الدم كأنها نبض القلب.. لا أجرؤ على أن أقيد حركتها، أو ان أحد من حريتها. لا أريد أن يفلت مني هذا الصداح الذي يغمرني بالتبتل، والوجد.. فيخرج صوتي الرجولي الحاد ممزوجا بلطافتها، وحنوها مثل جرة قوس حنون على وتر مشدود، يخرج مني النغم الوديع، المسالم، وأنا راض تمام الرضا (على العكس قبل ما عرفتها).. اجعله نداء انغل في العظم ومحوطا كل الجراح لأجل احتوائها وتطبيبها فما سمعت يد تصفق إلا هي قد برئت من مصاب عميق، ونجع علاج تام. معجبون يعشقون موسيقاي بجنون قد أدمنوا عذوبة جملها وجزالة معانيها التي تفصلهم عما يعانون منه، (مثلما المدمن كل مرة يطلب المزيد) التقط حبات البيانو بفعل سحر يتدفق كالنهر بإشعاع ساطع، وعاصف.. اقتلع الألم، و اجتث بقاياه بلا هوادة.. ولا أجد شجاعة عاشق أمام معشوقته.. أحس بقسوة المحيط، وزحامه.. اختنق بتكدسه،

وتتحول الخسارة إلى ربح متألق، لكنها اليوم تقدمت مني لتقول لي :

ـ رحماك خلصني؟

*كانت المرة الأولى التي أراها بكل ذلك القرب.. بكل ذلك الإذلال العصيب. مبلولة يصعب عليها الرفرفة، بعد أن اهتزت الأغصان من تحتها وفاجأتها الخطورة، فأعلنت لها بصوت كله ثقة :

ـ طوع يديك البريئتين؟

فأكملت في نفسي:

ـ أنت .. أنت ما أتمنى ؟

ـ رحماك؟

كأنها تطلع كالفيض اللامع من عمق الشاشة تفيض باللمسات، وأكاد اعرفها اكثر من قبل .. دافئة بالانوثة، شهية بعطرها واكثر وداعة..

كأنما هبّت عليّ فجأة رائحة الياسمين من خلف السور العالي، تعصف في دواخلي نبضا، وعصفا، وشجى، وكلي آذان شانفة لها، وهي تواصل القول:

ـ يجبروني على أن أعود إليه وأنا من احرق البحر والسفن؟

*نزل صوتها بخفة، وفرح مكتوبا أمام عازفي الاوركسترا كان ذلك النغم الذي يقصي ضجة العالم، ذلك الذي ما عثرت عليه في جمرات سهدي، وتعبي أبدا، وما لم اصل إليه بقصوى جهدي وتفكيري.. كنت ملهوفا أبحث عنه، اقلب الليلة تلو الأخرى جاهدا، مجهدا ولم اكتشفه، وكانه كان بيني وبينها ولم أضع عليه قبضتي، أو كان بين قبضتي وأنا تانه عنه. وصار كلي يتلقف (نوتته) المكتوبة على شفتين نديتين مسحوبتين إلى المغامرة، تحدقني بنظرة متوسمة، تزغرد سيمفونيتها التي لن تتوقف في ذهني:

ـ هو الآخر يريدني ؟

فهتفت:

ـ من ؟

قالت: حبيبي.

وقلت مع نفسي: ليتني أكونه.

أعادت القول:

ـ هو الآخر يريدني.

مثل نغمة نشاز استفزت العصب، ولكنها استمرت تتصاعد دفقا، ماء عذبا بتوازن مهيب، ومحسوب بتزامن جعلني اقشعر، رحتُ أعيد قراءة جداول معلوماتي القديمة عنها.. رحتُ أعطي جهازي أمرا بأن يراجع ما فاته وفاتني..تبين لي إنها بجمال أخاذ مسكر ينسيني أي أمر على الدوام ما كان قبل وبعده وبقيت أهز الرأس طربا، كالمأخوذ محلقا في قبس النغمات الطرية، وأسرارها البديعة مكررا إيعاز التسجيل على القرص المرن، قلت:

ــ هذه أغنيتي وأنا لاجلها أموت ..

وراحت تكمل:

ــ جئت إليك فانك الفارس الذي يستخار؟

قلت في نفسي:

ــ والحبيب ؟؟

ــ أعهدهُ عاجزا أمام جبروت زوجي.

ولم تكن سوى دمعة تسحَ وراء الأخرى.. بتتابع هارموني متدفق ظل يهدر مثل مدّ وجزر على ساحل منسي.

ــ فضحتني عيني ونبرة صوتي.

كأنها قرأت عيني، فكشفت ما كان مخبوء في حافظتي، وهي تعرف بأني ما قلتُ لها يوما كل ذلك القول، ولا كتبت أناملي بريد قلبي.. ولم اكشف لها اني أعزف من

قلبي. يؤرقني هذا الانشغال، والحيرة تدفعني للوقوف. أتملى كل هذه الضجة، و تساءلت مع نفسي لم كل هذه الحلاوات مختلطة بالدموع الصافية كالنبع، كلما شربت كلماتك حلقت حلما، مثلما تأخذني الموسيقى العبقرية.. تتراكض أبوابي وشبابيكي وتنفتح على عوالم متدفقة بالنعم، فابتعد عما سوءنا كإنسانية.. هل يكون من حقي السؤال، ويكون طعم القبلَ كل جواب، وليتني ارقص بالكلمات، واغني عشقي بهذه النغمات.

ظل الندم يتسرب كلمة وراء كلمة دون صوت ..

ليتك لم تكشفي جراحي بهذه الموسيقى.. ولكني انحنيت احتراما للأوركسترا بعدما ضربتْ ثلاث ضربات معلنا البدء، مصوبا عيني إلى عازف الكلارنيت الرئيسي ليبدأ بشدوه العذب بعد ان رسم مدخلا للعشرة عازفي الكمان الرئيسين ليردوا بجرة قوس موحدة القرار المكين، رحتُ اوكد لها باني طوع بنانها، سأمشي معها إلى ما أرادت حد الموت، مستغلق على سرها ومغنيا بصدق:

ــ عيناك نجلاوان وعميقتان.

خفّة زمن

عدتْ فرحا خفيفا كفراشة من حقل اندلاعها.. لا أدري أين أحط الخطوة؟. كنتُ أمشي طويلا وراءها في المدى كله، أنهج طريقها كله، محتملا كل شيء، ساهما، محلقا في فضاء حر. أتابعها منحدرا كما طفل لا يجيد السباحة وأخذه موج عات.. اخترقت الدفقات كمأخوذ منجذب خلف ضفيرتين حلوتين.. تنوسان على قميص ملآن بالكنوز. كانتا صافيتين بالبهاء، تبرقان بشريط أبيض مزدان بكبرياء طاغ كأن أعمدة الأرصفة هي التي تجئ الي، وأنا أتملى وجهها الفاتن.. يبرق بالفرح الغامر. وكأن لقدميها وقع أجراس مدوزنة النغم، يعزف لقلبي جاذبية آسرة، فأمشي خلفها مجبرا، ذاعنا ..لا تلتفت تاركة إياي بين ترددات قاتمة بالتضاد و التعارض، تسحبني الى ما تريد دون أن تعرف.كلما تلتفت هي يتضرجُ وجهي بالحياء وتصبح القدم

عبئا على أختها..تتمردان و كأنهما تقرران تركي في بقاع جرداء عقيمة.

أعودُ أنظر إليها من خلف نظارة سوداء كأنها نافذة بيت يطلّ على العالم من علوّ شاهق.. أتأمل وحشة الطريق، عتمته. ضوءها الذي بهرني، أرى في الخيال شرفة بيت معتم، تنبثق تلك الفتاة لوحدها في مطلق العالم، تحوطها قلعة ساحر مكيد قد خطفها من مكانها الآمن، وزرع حولها الأصفاد التي لا تكسر ولا تلين .. أراها ترنو الى فارس مخلص لا يخاف، ولا ينثني .زهوها البريء يبشرني..أتقدم ولا ادري أين ستحل بي الخطوة؟ .

أنا أطفو بخيال، و لا أرى سواها .. تنظر هي إلى المشارب بعينين أكاد أميز إشراقهما على الطريق الذي تاخذني اليه خطواتها، أتابع موسيقى جبروت أنوثتها..

أمشي كلما تمشي، متابعا بطرف العين بكبرياء، و لهفة..كأني أقول:

ــ يا حلوة العينين تمهلي؟

لم أقل لها ذلك ، أبدا..

بقيتْ أطارد بأنفي أقاحيها . بقدمي خطوتها، وبقلبي اتساعها البليغ..

في كل مرة كنتْ أريد أن أقول لها كل ما عندي ولكن (القلب) المليء بالكلام هو الذي سيقول.. سيصل اللسان إلي البوح الكامل، مخترقاً أزمنة الصمت القاهرة.. ولم يحدث أنى استطعت. كنتْ يوماً بعد آخر أنغمر في ذلك التيه المتفاقم بضياع الخطوة .. حتى وقفتْ في يوم ما عن ذلك المشوار بعذر قاهر، وبعد عقدين كاملين.. إذ كبرت، وكبرتْ... طوقتني.. بعينين ساحرتين وقالت:-

ـ سأخبر زوجي لو اقتربت مني مرة أخرى؟

بقيت بعد كلماتها ملجما بمكاني ثم عدتْ حزينا وثقيلا..

زمنٌ مضى

شاخصا بعيني بقيتْ أتابع تدحرج السنين الثقيلة على وجهها أقرأه دون أن يرف لي جفن، و في مسمعي خرافة العرافة، المنتهية على الدوام بأمل مفتوح..

ـ هل تزوجت؟

كدتْ أنطقها، ولكنها امتدت كالغيوم المتقاطرة في الفضاء المفتوح، تتشكل كل حين بصورة تلو صورة. و كان امرأة أخرى حلت فيها.. بقيت لا اقبل التداخل القسري. وجهه حبيبتي كان ابيض، و طولها القدود نعومة طاغية على كل حسناء عبرت سنيَ حياتي..

ـ أما لك أن تعرفي دون سؤال ؟

وزقزقت مع ضحكتها عصافير الجنان:

لديك أولاد ؟

بقيتُ ارفل حلما آسرا. ولم تتمالك هي هدوئها، بقيتُ أستل مما يملأني بهاء، وكأني ارفع الثراء المكنون تحت الأهداب، ممتشقا قلبي، مسرجا غيما، شاقا غبارا، غانما كل شيء.. فسألت:

هل أنت من بغداد ؟

كالحنين الثرّ تنهدت، مسقطة ما بين يديها . وقامت كالنخلة الفارعة، تصهل:

جئت تطلب علما يخصك لا يخصني ؟!

تركت جلستي، ولا أعرف كيف كان وقوفي قدامها.. وجها لوجه.. عينا بعين.. يداي تلمسها.. ارتبكت أكثر، اهتزت كالغصن المليء أوشكت الميل، رفت عينيها، طار لونها إلى لون آخر. بقيت أتحدى. .مستسلما لتضرجها و هي تفيض بالنعم!!.

ثمة دقات على الباب سحبتني عنها تراجعت هي أيضا، منسحبة من ملامسة الجدار الذي كان يقيد حركتها، ودخلت امرأة أخرى لتقول:

مولاتي لدينا حالة عاجلة!

عيناها الرائعتان فقدتا كل ذاك التألق وعادت إلى ما كانت عليه بالأصل وظهرت صورتها عليها.. وجهه قاتم، وعظام صدر ناتئ تشي بجوع قاس..كانت عيناها خاليتان من أية لمعة احبها.. كدت أتورط فيما لا يستحق مني التورط... شاخصا بقيتُ، و متيقنا أنها كانت حاضرة في ذهني كل الحضور، فاختفت الصورة خلف صورة أخرى. فيا لشقائي لو تأخرت تلك الطرقات المفزعة لحظات أخرى!!.

زمنُ الأبيض البريء

بقي بين يدي شعر رأسها المنسدل بطراوة ندية، عيناها مغمضتان ناشرة ابتسامتها في أوداج قلبي، نافضة عنها ذلك البكاء المرير الذي كان ينحت في عظمي، ويؤلمني.

ابتسامتها بدأت تشق عباب الصمت القائم، بليغة جدا كانت الشفتان تنفرجان عنها بلا انتهاء، فأطلقت زمردا، وياسمين.. فراشات ملونة حلقت في فضاء مطلق، وبقيت أصغي لتلك الرفرفات الهادئة بجمال أخاذ، فسألتها عندما أحسست إنها تهيأت لجواب:

وزوجك الثاني؟ ..

رفرفت كأنها عازفة قيثارة من ذهب ولكنها نطقت حروفها بتشديد قاس :

يطلقني!

فقلت من جديد ، وأنا المتلكئ في السؤال، أبالغ بهدوئي ..

وشقيقك هل يقبل؟

مسحت بقايا دمعة كانت تسح على الياسمين البريء، فانبرت مثل فرس صهباء..

له أولاده وزوجته؟

تنهدت، ثم واصلت تزفر :

يفعل أي شيء من اجل أن لا يدفع فلسا واحدا ..

كانت عيناها قرص شمس يذوب في البحر. وكنت أنا البحر من أرخبيل بعيد .. هي ضائعة بين الأمواج لا تدري أين يقذف بها التيار البحري القوي.. قريبة مني، ولم تكن قريبة.. كانت بعيدة، ولم تكن بعيدة، فقلت لها:

جعلتني في حيرة من امري؟

عجبا عشت معي نصف عقد وما زلت تجهلني ؟!

كنت أحس بأنفاسها الساخنة تلفح وجهي، وتهزني هزا عنيفا، كنت ضائعا بين حروب القلب، والعقل .عيناها الجميلتان بالدهشة، فيهما نور لن يخبو أبدا، وما أنا كنت قد هجرتها كل تلك السنين، الا إنها أرادت ذلك..

صدرها شاهق يضرب كطبول فرح غامق، وهي حمامة برية بين كفي. أشياء غريبة بلا معنى تحوطني، تقيدني، وتريد قرارا مني..فكرت وفكرت، فلم اصل إلى قرار، تحركت الأرض من تحتي، وصرت قلقا غير متوازن،

منغمرا بحبها الذي اباحني، ومنجذبا بشوقي إليهـا- أواه - ما اجمل ذلك الحب الذي كان.. وجدتها تغفو علـى كتفـي ببراءة كأنها تكشف لي بأنها تنام أول مرة في كنف رجـل. تصاعدت المعاني وخلفتني أصبو إلى حرية لا أريـد فقـدها نظرت إلى عينيها فقلت مذ ذلك اليوم:

احبك

أفردت شفتاها، وذقت ما لم أذقه طوال سنوات، ولكني في غمر ذلك الانفجار تيقنت باني أتذوق شهدا مـن طعـم آخر. تذوقت ما أتذكره جيدا، وصارت كلها حاضرة حتى تلك الليلة الآثمة..

قالت : - احبك ..

كنت لم اسمعها من قبل، ودون أن اجيب، مكملا مـا كنت بدأته معها في تلك الخلوة بعد أن تزلزل قلبـي معهـا، وراحت الأنامل تستمر بالانزلاق على ذلك الشعر الذي تصيّر ابيض، من بعد أن تركته اسود.

زمن فارغ للشمس(١)

كأن قلبي هو الذي يحدثني عن كل تلـك المتفاوتـات البينة، بينما كنت أخطو ساهماً إلى عمق الـصوان المعـتم، الذي امتلأ برجال لا اعرفها. فاخترت أحد المقعدين الفارغين في أقصى اليمين من زاوية تراكمت فيهـا حزمـة ضـوء، تلامعت خلالها ذرات الغبار، و استحالت مزيجا دافقا بألوان كرنفالية بديعة، انزلقت من فتحة شقها عماد الخيمة التـي فيأتنا. أصخت السمع إلى ما دارت الألـسن مـن همهمـات متوالية..تتحدث عن اللحظات الأخيرة، للمرحوم كحدث جلل قد حدث، توا، ولم يكن في المستشفى: (هكذا .. كان يقـول المرحوم)، (...كان يحب المرحوم قبل أن يوافيـه الأجـل)،

---

(١) نشرت في جريدة الزمان ٥-٤-٢٠٠٤م.

وهكذا دارت الاسطوانة بالذكريات توافقياً مع دوران أشعة الشمس المتحولة من كرسي إلى آخر بتتابع متسلسل.

قالوا:- انه ترك مالا كثيرا.

قلت:- ما نفع ما تركه؟

قالوا:- انه ترك زوجة جميلة؟

وقلت:- ليكن الله في عونها.

دارت القهوة دورانا صامتا على شفاه الجالسين كما دارت سورة الفاتحة دورانا مهيبا بين كل لحظة بين الراحتين والجبين .. دورة بطيئة الوقع تلتها الرجال بتمتمة شفاه مرتجفة، وبخشوع مستقر اندلع من العمق صار راسخا كالحزن المقيم.

بقيت تتمات الكلام تصل إلى أذني بتواصل إيقاع حبات المسبحة المضطربة التي تصفقها أصابع رعشة، دون أن يلجمها شيء.

قالوا:- أية سطوة كان يملك؟

قلت:- جردة الموت منها!

حضرت أناء الكلام المتواصل رجالات، وذهبت أخر عن الكراسي التي طالتها الشمس، وكأنها تطهرت من البرودة الضاربة في الخشب الفارة، قالوا:-

ليلة البارحة حضر الكثير من أعيان البلدة.

وقلت:-

من كان عليه دين يؤديه!

بقيت أنفث دخان السيجارة بين كل تنهدة، ويشخص امامي تحذير الطبيب الذي سبق، و أنقذ حياتي من موت محقق، كاد يحدث عقب نوبة قلبية، أوشكت أن تجهز عليَ، ولما كنت اشغل مقعدا بين جموع الحاضرين، ولما بقيت كتلتي، تشغل حيزا في هذا العالم المزدحم. كانت الشمس قد استقرت في المقعد الفارغ، المجاور لمقعدي. تصاعد الدخان الى أعلى كأنه يرتقي الحزمة المهيبة، بحثا عن مخرج، وكنت أتنفس حلقاته بعمق، فما قدرت صبرا على تأجيله، وكان تحذيرات الطبيب، قد سقطت في منفضة الرماد المليئة بأعقاب السجائر، وقبل أن أنهض، شعرت ببعض الخدر في أطرافي، ولم أستطع النهوض بعدها استقرت الحزمة على فخذي.

انفلات زمن[1]

١

في الليل يحدث الهوس ذاته.. يتفجر الجوع المؤرق. أحاول النوم فلا أستطيع، فأدلج إلى ممرات مشوقة مغلقا أرقي...

٢

تابعتها من زقاق إلى آخر.. حتى دخلت أحد البيوتات الصغيرة في حي شبه مهجور... لم تضحك لي فتاة بمثل ضحكتها، فصرت ناعماً إلى هديل ضحكتها الحلوة مرتجيا هنائي، منتظرا لها كل ليلي ...

٣

ألم توسط بطني كأن أمعائي يلفها محور يدور بسرعة بليغة، ويشدها بقوة غريبة.. جمر يسعر بنار تمور.

---

[1] نشرت في مجلة الرافد الإماراتية في آب ٢٠٠٢م

الظلام دامس جدا.. لا ضوء لأرى، أمدّ يدي باتجاه مفتاح الضوء.. يصدر صوتا، ولا يأتي الضوء. الألم يشتد اكثر، بطني تكبر يخيفني هاجس انفجارها. ثمة جفاف في حلقي – حاجتي للماء تكبر. الألم يشتد والنار من الداخل تنفث لهيباً حاراً يخرج مع زفيري. أحاول الحركة فلا يستجيب لها جسدي .

يخجلني الموقف.. بطني متكورة، يعاودني الشك بأني تحولت إلى أمرأة.. مثلما تحول "كري كوري [2] " إلى صرصار.

يداي وحدهما حرة الحركة ألمس صدري. ولا أجد أثرا لشكي! الشيء في داخلي يتحرك هوجا. الألم الهائل يدفعني الى صرخة أخرى.. يتصاعد من البعيد صوت صراخ طفل.

لو أستطيع الضحك.. أيّ لعنة، وأيّ ألم ؟.. لعله قادم من أحشائي؟ أيكون المتحرك جنيناً؟ من يكون والده، يا ترى؟ أو أكون مثل الآلهة " آتوم " أو مثل تلك؟..

فمن يصدقني بعد الفضيحة يا ترى ؟

يا لوجعي ؟!.

---

[2] بطل مسخ كافكا الشهير.

٤

تابعت الدروب المؤدية إليها. حاولت لقياها، فوجدت الدروب كلها تأخذني إليها، ولا ألقاها...

٥

تساءلت مع نفسي من يكون هذا الزائر الغريب. أتذكر من ليلة البارحة بأني ما فتحت الباب لطارق.. حدقت في ملامحه وجهه.. تقاطيع وجهه تطابق تقاطيع وجهي. حاولت تلمس جسدي، كأني بقيت بلا جسد فوق سريري، وأفلت مني جسدي!. لا ادري.. أليس مرضا نفسيا- انفصاما. لست أدري ؟..

قلت له:

(من أنت ؟)

كأنه لم يسمعني. حركت عيني في الاتجاهات كلها، وحركها هو مثلي.. تحرك صوب الثلاجة فتح قنينة ماء، وشرب بعد أن شعرت أنا بالعطش .

من أين جاء، وماذا يريد ؟

رغبت في أزاحه ستارة النافذة ليتسلل الضوء، فتحرك تلقائيا إلى النافذة، وأزاح الستار. الحيرة تملؤني. جسدي سليم ولم يفارقني أبدا. اليدان ذاتهما، الساعة البلاستيكية في معصمي ما زالت تعمل بانتظام، القدمان بهما نفس الجوربين اللذين أخذتهما من حاجيات أبي.

يا للمفارقة، قسماتي ذاتها.. طولي، لون بشرتي حتى قميص النوم ذاته كأني أمام مرآة، وتمردت عليّ صورتي !!.

هل أنا في حلم؟ أم مرض ؟..

يا لوجعي ...

٦

وقفت عساني أستدل على مستقر..

٧

تقلبت على جنبي حائراً، هل أنجبت نظيري ؟

أحاول النهوض و لا أستطيع .. ربما سيجيء أبي، ويراه في بيته.. سيفرح دون شك، بعد أن يطردني متخلصا من متاعبي له!.

يا لوجعي ...

٨

أراكِ كما الشُهب المشتعلة في السماء المفتوحة، ومضاً على قلبي.. تأخذيني كالخطف مأسوراً بطلع شامخ بين لجّ الخيال، والمتاعب. خضمّ كلام صامت.. أتحرق إلى جدية المعنى وعبثه.. نسغ إلى ورقتي الذابلة؟

٩

علّي التخلص من وجوده !

١٠

أسيلة الوجه بقامتها الهيفاء. مدّت لي يدها قبل أن تدعني الدخول إلى غرفتها الكابية بضوء شحيح اخترقها من ستارة ملطخة ببقع صفر مقرفة، رائحة غريبة تطوف في فضاء الغرفة الفارغة إلا من بساط إسفنجي بقع ...

كانت عيناي تجول في عينها الحلوتين، شعرها مصفوف بلمعة اخترقت الألوان الضحلة، وانتشرت في سحرية. وددت لو أقبلها على صفحة شفتيها الطافحتين بالشبق الشهواني عند زاوية الغرفة في غمرة الضوء الشحيح، رميت قميصي فوق ثوبها، وسروالي .

١١

خرجتُ ناكصاً بذلّ التشفي ..

١٢

من شيء إلى آخر.. من حلم إلى آخر وجدتني أغفو مستسلماً لنومة غير هانئة مقضضّة بالكوابيس، والأوهام؟!.

زمنُ الكليلة

اللونُ الحادُ جَذبَه، وحلّقه مغتنما لفرصة عزتّ عليه أن لا يُضيّعها بعدما غفلت عنهُ، وهو يتقافز حولها تارة على يمينها، وأخرى على شمالها، كما لو كانت تراقبه بعينين حريصتين، (فربما يسرقوه.. مثلما سرقوا ابن جارتها قبل أسابيع ثلاثة، ضغطوا عليها أكثر من مرة لأجل بيعه إليهم، أو إيجاره. لكنها رفضت ذلك بكل ما لدى الأم من قناعة، نحو ولدها الوحيد).. تتركه يلعب حولها مثل فراشة مزهوة يتنقل من هنا إلى هناك، دون أن تغفل عن صوته، ولا تتركه يذهب بعيداً، وهو يراقب الناس التي تضع قطعا نقدية على عباءتها المفروشة أمامها. كانت تتحمل أشعة الشمس اللاهثة في النهار، و في الليل يقودها إلى مكمنها الذي تنام وإياه، و في لحظة افتقدته أناء غياب صوته عن مسمعها..أوشكت أن تصرخ بأعلى صوتها عليه، لكنه عاد

سريعا يغرغر فرحاً، ويمسك قلماً التقطهُ من مكان قريب، وراح يخط على الجدران المحيطة بمكان جلستها، كان جذلا بالذي يرسمه على ورق علب السجائر، أشياء لم يكن يعرفها كأنها تخرج من بين أصابعه،وتبهره، عالم جديد يُشكله من خطوط بسيطة، و يقربه الى عينيه كأنه ينحشر في تلك العوالم المتداخلة.. ثلاثة خطوط، تتقاطع، اثنان منها مع الاول، يتكون زورق، و الثاني أمتدَّ مثل نهر ممدود إلى حدود غير منتهية. عالمٌ فيه براءة صافية أصفى مما يحيط به، دخل متوغلاً في جزيئاته المتداخلة، عازماً على عدم إدخال أي أحد ماعدا أمه إلى ذلك الكون البديع، وخصوصاً ذلك الوجه الكريه ذي الشاربين الحادين الذي يأتيها، و يغلق الباب، و لا يتركها، إلا باكية تلعن حظها.

ولد وبنت وزمن[1]

مشى الولدُ مهموماً إلى حيث لا يعرفه، بعد أن تألم كثيرا لما حصل بين أبويه اللذين يحبهما حبًا لا مثيل له، ولم يكن حزنه السرمدي المتصاعد في لجاه أغنية حزينة مليئة بالأمل، متزاحمة بأشياء أخرى لا يدرك كنهها...

في الطريق سحَّ على خديه الندى الجميل الذي كفه بباطن كفه، وأنطلق بلا توقف، يرنو إلى غيمات موزعة بلا انتظام في سماء ذلك اليوم اللاهث، وراح يتابع كل ما حوله بتروّ مستشرفا ما يحدث في هذا العالم المزدحم، قادتهُ لمعة، فكرة ما، إلى أن يدخل السينما. أن ذلك الشجار العنيف الذي توتر إلى حدّ دام، جعلهُ بلا حول. فماذا سيقول في أبويه؟.

---

[1] هذه القصة البكر، نسخت من دفتر درس الإنشاء المدرسي، ودون أي تصحيح، وبمثل ما كتبت أول مرة..!.

صراخهما تصاعد إلى كلمات بذيئة نبهت كل الجيران، فاقتحموا بيتهم، دون استئذان. وجد نفسه ينزل درجات قاعة العرض ومن حوله أضواء تتلامع. صوت أم كلثوم كان حزينا باكيا كصوت أمه.. عصيٌّ ذلك التذكر المتداخل بين كل هذه المواقف المخزية.. شجار كل مرة لم يتجاوز الكلمات الحادة التي تبادلاها كحصة يومية، تنتهي بزوال المؤثر. ولكن شجار اليوم تصاعد إلى عواصف من لفح حار جداً... أكثر حرارة من الصيف اللاهث، أثناء انقطاع التيار الكهربائي، وجد نفسه يختنق في المقعد الفارغ، فراح يتأمل دوائر الدخان، التي تتصاعد من أفواه متفاوتة، تزفر اللهب بقوة، مثلما يزفرها أبيه، إذ كل مرة يجعلها تخرج من كوة بالغة الوهج.. يخافها الولد، فينكمش في مقعده، كطفل صغرهُ الخوف، وسحقه كطحين ناعم، فراح يقاوم بعينيه اللامعتين، دموعاً كرجت مستعدة للانزلاق على خديه، وفضحه مرة أخرى، وأخذ ينظر إلى ما حوله، والدمع الشفاف شوهَ الصفاء الذي يرتجي..كانت (أم كلثوم) تبكي لغرام لن يعود، وصوتها يخرج عفياً، متواشجا بالأنين.

رأى فتاة انطلقت تنزل الدرج بغنج متواضع.. شعرها النازل على كتفيها يناديه، يجذبه.. يالها من بنت جريئة؟.. تحول خلفها كالمسحور ماسحاً الدمع، معدلاً أكمامه منطلقا الى فراغها الجميل، ينزل الدرجات خلفها بخفة عصفور.. كان الضوء يقل تدريجيا، وبدأ الصفير يتعالى من أفواه حادة قبل أن تجلس لمحها، بعد أن اصبح على مقربة منها. ولم تكن فتاة، بل كانت فتىً بشعر اصفر طويل.

٦-٣-١٩٧٧

لعبـــة زمن

(عرض الأسد قافلة، فتبرع عليهم رجل، فخرج إليـــه فلما سقط وركبه الأسد، فشدوا عليه بأجمعهم، فتنحى عنـــه الأسد، فقالوا له: ما حالك ؟ قال لا بأس علي لكـــن الأســـد خرى في سراويلي[1]).

دربكي يا درابك الخلاص، و أوهجـــي ذؤابـــة الأمـــل الضعيفة.

الصمت كان شاغلاً كالجدار الأصم، والليل يمتد مـــن خلاله لينتشر على أبعاد حزينة، مرهفة الحس قتلها الخوف وضياع الإيمان بالروح الرافضة المنفضة من جبروت غسيل الدماغ و المندلقة على أوراقهم السمر الفارغـــة- إلا مـــن كسل، وجبن متكلس ..

---

[1] رواها الجاحظ.

دربكي وهاتان يداي الموشومتان بأفعى خضراء تمـــدّ لسانها بنار ليس لها شكل تدور حمراء في القلب المتـــرف بالوباء، بالفشل، بالإحباط. تنير الليل الأخرس، وتبل الصدى وليباس العابس: يا هاتان اليدان المنقذتان من تعنت الزمان المرّ اضربي بقوة اكبر.. دربكي، واكسري شـــبكة الـــصمت المتبدد مع خرير السواقي، وحفيف الشجر ، وتغريد البلابل، و .....، و....

ــ لكن الصمت مبذول لساكنه ..

دربكي أيتها القوة الرجاء و اهززنني لانتزع آمـــالي، وتطلعاتي وحبي المطمور تحت أنقاض الجمود الواسع لانقذه من رحى الهمّ الكبير. الحب لا يموت، والشجرة نزعت قلفها للمرة الألف دربكي، واغسلي ما تراكم من وسخ على أوراق الزهرة البريئة. الحب لا يموت ما دام منقوشاً على صـــخرة القلب الجميلة يقاوم غبار النسيان دون استسلام للطمر يبقى متوقدا كل ليلة، وكل عمر.. تبقى ذؤابته المنيرة متراقـــصة تتحدى اعتى القوى رغم دخوله طور احتـــضاره. الحـــب لا يموت..

قالت أمي:-

ـ ساكن الروح جسد وساكن الجسد روح.

صوتها الطري إيقاع من شتات عتيق مزقه الصمت الممل وهي فاضلة في عقدها السادس، تطالع العالم بعينين متشحتين باللهفة.. تلبس جلباباً ابيض موشى بخيوط سود من ليل مرّ عليها، وأهداها الحكمة والقلب الطيب . قلت لصديقي:-

ـ هيجان الروح في الجسد يحتاج الى إيقاع اكثر معنى كي ينتصب..

ـ (كبرنا على الهمّ وهذا ما يؤسفنا).

يسكت بعد قوله، ويظل مستتباً في توزيع المصابيح الملونة على الجدران بينما عيناه الجميلتان تتحركان بتوقد ذكي.. تجولان في مدى المكان باحتفاء فرح غير مكتمل، ومتقافزتان كأراجيح بمعنى حلو .. تفتتح مهرجاناً، و أملا مبتكراً يقاوم شلال الخيبة النازل على أم رؤوسنا بعنف شديد ويزيح الفروة المشيبة حتى بقيت الصلعة وحدها هوية زمن تساقط وعقمت بوصلاته هوية جراح تعكس لمعة الألوان برثاء وهي دون لون.. المصابيح تتراقص في الأعالي فرحة بالهواء النقي الذي يلامسها، وكأنها تبتسم مادة خطوطها

الضوئية الساحرة على البقاع التي تكن لنا حبا من نوع آخر يمتدّ من آفاق طفولة رخوة ذكرتني بانتصار (قطر الندى) على الساحرة الحسود !

دربك أيها المعنى، واهدني إلى كيفية تقنين الحزن، والوجع، والقلق ، و..

((... وكما يقولون يسقط في فيك ذرق طائر العنقاء.. رائحته كريهة، فتبصق.. لكنهم يؤولون بصاقك إلى معنى فارغ مما ترميه.. تبصق على حظك فتخسره.. ويأتونك بحبال قوية.. يربطونك حياً محمولا مثل ذئب على عمود من خشب، وعيناك تبقيان تلمعان بسر لا تعرفه وأولوه أيضا إلى ما يخافوه.. يقفون أمامك في متسع الوقت الضيق ركلاً، ورفساً يطالبوك بالهزيمة.. يمارسون فيك ساديتهم الفظة.. يشققونك بلا رأفة، وعيناك مثخنتان بحلم جميل وبريق أخاذ ينهش حقدهم .. تمتد أياديهم وراء فرحك وانتشائك بالألم.. تمتد إلى العمق تحاول ان تلوث بيئة ازدهارك دون جدوى، فيكسرون زجاج نظارتيك، لا هم لهم سوى معرفة فرحك الزائغ عن أياديهم العمياء))...

...، واليأس أيضا ... ترى يا درابك الخلاص هل بالإمكان إنقاذ ما يمكن إنقاذه دون أن تذوب تلك الآمال الرائعة؟.. تعود أمي تكمل قولها، وهي تغرز أصابعها الملساء في وعاء مليء بالعجين الأبيض.. عيناها في عيني تمتدان الى عمقي، فازدهر خجلاً من تجوالها في قسماتي:-

ـ انظر بنى إلى حفنة العجين هذه ..

فأنظر الى ما تمتلئ به قبضتها، بعينين عائمتين بالانتباه.. تعصر بقوة عصابة ما بين أصابعها، فيخرج العجين شكلاً جميلاً صقلا. انظر إلى عيني من جديد، وبقوة تواصل صهيلها:-

ـ تأمل هذا الحصار المرّ..

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ ستخرج من هذا الحصار كهذا العجين.. مهما كثرت وعظمت قوة الضغط فلن تنهرى ما دامت فيك قوة للتحمل.. ستبقى بكامل عفويتك.. لكن اجمل واكثر نفعاً لمرحلتك ..

درابك الليل والغجر تملأ الأذن، والذهن .. وحدك في أحضان تمتص منك الخوف القديم، وماء الظهر الخائب.. وحدك معها، والصمت وصوت درابك أنداد تخربش صفوة..

واحتها الخضراء، وبينكما نياسم مطمورة بكثبان رمل اصفر... درب من الوجد لا تقطعه عنك الأفاعى الزاحفة نحوك. ترطب وجهك برضابها كلما جففته الظهار القائظ.. وتشربها حد الارتواء، تمد إليك أجمل كف إلى جسد يشتعل ليضيء فرحاً، عطراً، وعنفواناً مدربك يفتقر إلى صوت شبابة تعزف خطوتك الواضحة لتسير طفولة تعبر الهاوية.. لعفويتك معنى القدر الجميل تخطوك نحو الأمان، هامسة:

ـ ثمة مخرج من هذا الضجيج لكنه لن يكون بلا ثمن.

ـ زفاف موجوع.

تقول والكلمات تراقص شدة الثمل:-

ـ (زفني واعرف مرامي.. صادوني صيد الحمامي)

تضحك، واضحك: صوت الدرابك لا يضحك يعوي.. أنت أيضا تعوي.. تثغو.. تموء.. تصيء كلما ضربوك.. ضحكك عواء طبول مجنونة جعلت المهزلة تستمر أعواما ثقيلة.. انت تحسر من ماء الوجه الكثير.. كانت بقربك شجرة وارفة الظلال.. تحبها بكل ما للحب من حب.. صوفي ، فارق واحد كان بينكما، وهو ليس ما اخترتماه.. وجدتما

من كل دين معتنق.. لكم دينكم، ولي ديني. بعدتما عن بعضكما لان القلب الواحد جزأوه الى شيع، فباتت تكرهك لان حبها لم ينصهر وحبك.. تكرهك بقدر ما أحبتك، ولم تعدان معا وتنعم بفيئها..

ـ أرجوك خذني من هنا.

ـ عجبا.

ـ لا أستطيع المواصلة بهذا الهزال.

ـ و لكنها ليلة زفافك..

ـ أرجوك خذني إلى أى مكان.

ـ شرط أن نعود سريعا..

ـ خذني ...

((مائدة مستديرة تشبه صحنا طائرا و أوراق من البلاستك تدور بين الجالسين ليراهنوا على قوته الخارقة في الفهم والتطلع/ يأتيه الملك ثم تتبعه الملكة دون أن تدري/ عيون متصلبة/ دقات القلب تدق بانسياب هادئ على الرغم من التوتر ودخان سجائر جعل الفضاء مكتحلا بالضباب بينما صوت ام كلثوم يأتى من المذياع الصغير البعيد جميلا قد أرخى الأعصاب/ بدأ اللاعبون بالارتشاف من كؤوس مختلفة

الأحجام مليئة بمختلف صنوف الشراب ثم يعادون النظر إلى ما جاءهم من أوراق، ويشعلون سجائر أخر ..)).

ـ الحب هو الحب.

ـ لكن يا أماه لا أريد الزواج الآن !

سيكون رباطاً اشدّ من كل الروابط الحياتية.. ستكون عائلتك البستان الذي تضع فيه جهدك !!

دربكي يا درابك المجد العتيق ...اليد موثقة، والصدر مثقل، والعينان مفزوعتان مما يحيط.. البشرة قست عليها عوامل الانجراف والقهر.. المدن خيال في خيال حيث لا مدن سوى هذه الجدران القريبة من بعضها بعد أن جردوني من ثيابي و ألبسونى إياها، صار عالمي من حيطان متراصة، عالية.. طبعي ازدواجا بين الخلود والنسيان بين الموت حبا، والخيانة.. بين التغريد والعويل.. بلا هدف ومعنى فالرائحة النتنة تتصاعد.. تـ.. تـ ..

العين مفتوحة على اتساع كبير ترى الحضارة وهي تتقدم نحو رقعة الرقص... مصابيح كرنفالية الانتشار على مساحة بؤبؤ العين بألوان زاهية تختلط بغناء صامت يجول

الروح صاخبا مخترقا غشاء الأذن مثل قرقع مجارف، ومعاول تحفر.. تحفر.. ت...

((.. يدخلونك في قبو صغير لا يتسع لك إلا وقوفا.. تملؤه رائحة جثة/ هسيس عظام تنكسر تحت قدميك/ تقيأ/ عيناك تدوران في الجدران الغامقة.. تجد أسماء مكتوبة بالدم وبخط واضح، تعلق الأسماء في قعر الذاكرة فترفض ان تكتب شيئا واملك عاليا لا يطال.. من فتحة صغيرة يدفعون إليك بأفعى صغيرة تنظر إليها من شدة فزعك، وتجد رأسها مهروسا بكعب بندقية.. يأتيك ضجيج ضحكاتهم و أنت واجف مثل جرذ/ يأتيك صوت الماء، وثمة صفير للفوران تعرفه جيدا/ تبتهل إلى الله بعد أن تحدس بأنهم سيسلقونك))..

تصفعك أمك :

لا علاقة لك بأحد من هؤلاء.. أفهمت؟..

أجهشت ببكاء لو تكن تريدني أن أراه..

مازالت عمتك تدور في كل السجون بحثا عن ابنها الذي أخذوه منها منذ سنين؟..

((تدور بين أصابعه وذهنه الأوراق وعيونه تدور في العيون التي تدور في عينيه ويتصنع الابتسام/ دون ان يدري/ تحرك بين الأصابع المزيج من ناس مزيجه خلطها اللعب حالة واحدة يتابعون أوراق آتية بآلية/ بعقلانية وهو يعاود الارتشاف من قدحه، كما يفعلون، ويشعل سيجارة كما يشعلون)).

دربكي ايتها الدرابك وحددي هويتي، وخطأي، وشكي. دوي بعنف أشد، وليمتد الصوت منك إلى لغة تمور في أديم الكون: أن أحس برعشة أمل تدب في وتطرب كياني أن تحطبي كل الأوراق التي نزفها الزمن الحربي.. أن تصحي ما كتب بروية وحكمة متخلصة من التهور الغبي.. أعيدي الى فكرا غير ملوث بدناءات الانحراف والضياع..

((هربت في يوم عرسك لتلعب دون أن... تنام مع عروسك ودون أن ... وضعوا في مجرى بولك سلكا رفيعا، وجعلوا التكنولوجيا تفعل فعلتها)).. الذاكرة هوية لم تجد ابرازها في الوقت المناسب. الإيقاع جعل الزمن أكبر مما يمتد به، واعمق من العجز الذي تعانيه:

يقول صديقك الذي لم تفارقه:-

ـ لكنك يا (قفاوس) لن تصمد طويلاً بهذين الحملين الثقيلين.. قرناك لن يتحملا ثقل الأرض ولا ثقل القضية..

ـ أية مهزلة تقول ؟

ـ تجيد التسمية لكنك ستسقط حتما يوما ما..

ـ أرجوك لا تبث في هذا القدر الأعمى من اليأس.

ـ أود نصحك.

ـ أريد الأمل ..

ـ فاقد الشيء لا يعطيه كما يقولون

ـ أريد الأمل ؟

ـ سأعود الى حفلة الزفاف دونك

ـ حسنا تفعل ..

عرسك مأتم هي هناك وحدها تستحقك، ولست جديرا بغيرها هي الأحلى، ولكن هزيمتك شخصت عندما رضيت بالزواج من غيرها.. ما زالت ملكة متوجة على الموسم الجميل الذي تود.. خسارتك شاخصة على تأريخك.. يداك خاليتا الوفاض، والقلب أيضا.. خسارتك صارت ربح مادي.. بقرة حلوب وولود.. خسرت الحضارة، والتطور وأنت لست قادرا على تصويب أمرك، وسينبت لك ذيل على إيقاع

المهزلة، وستساق بالسياط ان توقفت عن جر العربة التي يريدون.. خسرت عينيها، والفرح، وشعرها الذهبي.. ستبقى مزروعا في مكان واحد، بعد ان تطلع عليك شمس تجففك حتى تسقط للمرة الأخيرة، وتحملك الريح مطوحة بك إلى الأقاصي البعيدة، وتأتي على نار تحرقك حتى تذوي رمادا، وتتناثر ذراته...

((الصمت فاصل بين الأصدقاء والأعداء والمحاربين.. يهتفون بصوت آمر.. العب.. اكشف أوراقك.. فيذعن للأمر/ للوقت الحرج/ تفاحة ناضجة أنزلتك الأرض.. يقول احد الحاسدين يالك من صاحب حظ رفيع.. يضيف مبتسما ليت حظي يتعدى اللعب على المائدة المستديرة التي ما تلبث ان تدور، وتدور. تأتيه الغجرية صاحبة العينين الخضراء، بصدر مكشوف عن تفاحتين ناضجتين/ تلامسانه بدفء شبق، وتطبع على شفتيه قبله تمنحها لكل من يفوز.. رائحة فمها تشدّ فيه ذكرى رائحة ذرق الطير الكريهة.. تملأ فمه ويتقئ بشدة وعيناه تتابعان الصراع الناشب في عيون من يحيطونه/ توشك ان تطلق من أقفاصها/ معدته لم تتوقف

عن قذف خزينها ينقلونه الى المشفى/ يبقى ما كسبه على المائدة المستديرة التي تظل تدور، وتدور..))

ـ ليتها لا تعرف السكوت

الدرابك تضرب بصوت بدأ يوهن تدريجيا.... مدى الحديقة الساحرة، يتسع إلى حدود زاهية تخلب اللب.. يتقد الليل بالزغاريد، والحلوى، والأماني المنسلة بأمان بين السوداء، فتمتد لحظة التمني طويلا.. طويلا .. تعود وحيدا فارغا يلفك صدى ضياعك منحرفا باتجاه لا تعرفه.. الوهن أصاب كل ما فيك حتى الذاكرة.. أصاب ما فيك من انطلاق، و تفتح، وتوقد... حزينا تعود مستسلما إلى صوت خفت.

ـ تزوج من اجلي بني..

الدرابك تنوح بوهن كلما تبتعد عنها.. الأفق الجميل غطاه لون ضبابي لا يفقه.. الليل في الدار محطب بأمل جميل ومضفر كجديلة سوداء حلوة/ ابتسامة منيرة/ أضاء كمنار يرشدك حيث الأمان الذي تنشد.

وأنت حاول الثبات.. لا تهتز لست تدرى طربا، أم من شدة الخوف.. بينما التيه ممتد بينك وبين الحفل المعد لزفافك.. لك عين ثاقبة، فميز بها المندسين بين المهنئين!!

الدرابك تدوي طرباً.. جعلت العيون المليئة بالوعد.. تتوافد بلا توقف كضفاف معمرة في نفسك نفساً جديدة تبتكر فسحة للأمل الضيق.. تتوافد، تتوافد، والرقص يشتد بإيقاع أشد.. تضرب، تضرب، وتضرب.. حتى ينفرد صوت صديقك محذرا بهمس مثل صوت شبابه اكثر حزنا:-

ـ هاهم جاءوا ليأخذونك أيها المقامر..

يتكدسون حولك كالليل الحالك، بينما خطوط المصابيح تنشر قدامهم تحجبك عنهم/ تواريك..

((يبقى صوت الدرابك الواعدة أبدا))

لكنك تصمت، ولا تقول!!.

-١٤-

١٠-١٩٧٦

ما آل إليه[1]

ـ ما هكذا... يا كريم دع المرأة تأخذ كيلو الطحين بمائتي دينار ولا تصر على بيعه لها بمائتين وخمسين؟

كأنه لم يسمعني بعد أن نهض من كرسيه الوثير عاقدا حاجبيه، متثاقلا وواضعا مسبحته ذات الحبات السود الناعمة في جيب جبته، بعد أن انبعثت منه رائحة مميزة تذكرني بأبي بعد عودته من المسجد، مسح شاربيه براحة يده اليسرى، وقال للمرأة متنحنحا بصوته الأجش:

ـ والله العظيم أنا لا أبيعك أكثر من سعر الشراء... دعي البكاء وأفهميني.

نظرت إليه المرأة بغيظ، وانطلقت تغذ خطاها إلى عمق السوق. كانت تبدو في الخامسة والأربعين بين عباءة سوداء وأيام قد صيرتها تهمهم بصوت واهن ضعيف قائلة:

---

[1] نشرت في جريدة (الأسبوع الأدبي) العدد ٨٣٣ في ١٦-١١-٢٠٠٢م

ـ يا إلهي بعت معظم أثاث بيتي بأبخس الأثمان ولم يبق لي ما أبيعه... حتى الملابس لم يبق منها سوى ما عليّ وعلى بناتي الخمس الصغيرات.

تركت الجريدة التي كانت بين أصابعي تسقط على الأرض، وهي مفتوحة على إعلان ملأ الصفحة عن حفلة سيحييها عدد من ألمع نجوم البلد في فندق الثور الجريح السياحي مع وجبة طعام مفتوحة بخمسة آلاف دينار للشخص الواحد، وانطلقت خلف المرأة تاركا (كريم) يسألني عن وجهتي دون أن أسمعه ردا.

بحثت بعيني عن المرأة التي صارت جزء من الناس المزدحمين في السوق، بقيت أحدق في وجوه النساء المتلفعات بالعباءات السود، متفرسا كما طفل أضاع أمه.. نسوة كثيرات يمشين باتجاهات مختلفة ومتعاكسة.. رجال، وشيوخ أيضا... أصوات باعة تصيرت لغطا متواشجا ببكاء أطفال تخلل قرقعات عربات فارغة، وأخرى مملوءة... منبهات تزعق بهمجية تخترق الرتابة.. باعة بأصوات غليظة، وأخرى ناعمة.. همهمات استنكار.. رجال تعبون، نسوة متضجرات بتقاطيب قاسية... عيون كسيرة وأخرى متحدية.. روائح أجساد متعرقة تعط بين الفراغات ممتزجة بروائح اللحم الذي علقه القصابون على واجهات محالهم...

كان بعضهم يقف في محله كتمثال شمع لا يرى ولا يسمع.. ليل يغطي العيون، أناس تتصادم ببعضها..رجل سقطت منه حاوية البيض وقرفص إليها ليجمع ما ساح من البيض على الأرض، وبقربه مشت امرأة تلوك لباناً وهي تضحك بصوت داعر إلى رجل أنيق يتابعها دون أن تبالي بنظرات الناس إليها.. طفل في العاشرة حافي القدمين بجلباب ممزق يمد اليمنى ليتلقى من الناس عطفها. رائحة لحم مشوي، ريش يحترق. أوراق أشجار تتساقط في الربيع... بخار، ورائحة وخمة.. رجال تيبست ملابسهم بعد أن نضحت أجسادهم عرقاً غزيراً. عيون قاسية، وأخرى رحيمة... توسلات، ومكابرات... الصمت يفصل بين النقائض، حاجتها طحين، وسأجدها قرب أحد بائعيه؟ اخترقت الزحام واحدا أثر آخر.. حتى وجدتها تقف إلى أحدهم وهو يحلف لها أغلظ الأيمان بأنه يبيعه لها بسعر الشراء..

اقتربت منها هامسا:

ــ هذه مائتان وخمسون ديناراً يا خالة.. خذيها لأجل إكمال المبلغ الذي معك.. رفعت إلي عينين مملوءتين بالأسى دون أن تقول شيئاً وأشاحت بوجهها بعيدا عني تاركة إياي مع البائع ينظر أحدنا في وجه الآخر.. احترت فيما أقول..

كما احترت بالخطوة التي بعدها.. قلت لنفسي (ربما تحتاج إلى خمسين ديناراً فقط؟)

عاودت خطوي أثرها، وأنا أمد يدي إليها دون أن أعي فعلي، حتى سمعتها تقول:

ــ آجرك الله يا بني.. أنا لست متسولة دع نقودك في جيبك.

أومأت لها أن تنتظر، فسألت بائع السجائر:

ــ بكم السيجارة المفرد؟

ــ خمسة وعشرون ديناراً

كان البائع طفلاً لم يتجاوز التاسعة من عمره، وقف على الناصية.. التقطت السيجارتين، وقلت بعجل بعد أن تصنع اللامبالاة.

ــ هات الباقي يا ولد.

فقلت للمرأة:

ــ أهذا ما تحتاجينه؟

عاودت النظر إلي بأسى متشح باللوم الشديد وأوشكت ان تقول شيئاً، لكنها أجهشت بالبكاء متقطع وهي تقول:

ــ (الله لا يوفق... أمريكا).

كانت السيجارة بين شفتي ترتجف، وأصابع يدي المتعرقة ممتدة إليها بالنقود

ـ أرجع نقودك.. الباعة ما عادوا يرحمون أبدا

كنت أقف أمامها كمعترض سبيل محاولا دفع النقد لها وهي تواصل بكاءها المر. تجمع الناس حولنا، وكرهت أن أبقى محرجا، ربما سيتدخل أحد ما ويجرني إلى ما لا أحسد عليه.

أحسست بالفضاء فارغا، صمت مقيت حال طاغيا فصل بين لغط الناس وبين صرخة ألم رهيبة ستندلع من كائن يربض بين تلافيفي. فتركتها وشأنها عائدا إلى صديقي (كريم) وأنا في ثورة غضب راغبا في تلقينه درسا مما كان يدعيه من مبادئ وأهداف بان زيفها... كنت أنوي تذكيره أيام كان يستدين ثمن علبة الدخان قبل اليوم الذي صار فيه يشتري ما يريد حتى لو كان بـ (مليون) دينار. يمور ذهني بمختلف الألفاظ والصياغات، أتذكر سهرة ليلة البارحة التي كلفته آلاف الدنانير دون أن يبالي لها. سألقنه درسا مقارنا بين ما كان وما آل إليه.. تقدمت إلى المتجر وقبل أن أنطق بشيء سمعت امرأة أخرى تبكي، وصديقي (كريم) يحلف لها أغلظ الأيمان:

ـ والله العلي العظيم أنا لا أبيعك إلا بسعر الشراء.

غريم زمن

كان يحدث جليسه في (باص) مكتظ بالراكبين، وبقيت حكايته تدور بين الجالسين، مثلما يدور دخان السجائر المختلط مع أنفاس الراكبين وكأنه كان يتحدث الى معه بقيت وحدي استمع إليه بكل تركيز:

ـ (كلمتان ولم أزد عليهما شيئا، كل ما قلته له، عندما لاقيته في منتصف الشارع، إذ كنت أغلي قبل ذلك اللقاء كمرجل، ولم أكن في حالة توازن. كنت أبحث عنه، متوعدا به، وكأني أحمل روحي بكفي، وبأني سأفعل به ما يحلو لي، حيث جعلني ذلك الرجل القميء، البائس في حالة يرثى لها، اذ جعلني أخسر كل استقراري، بعدما استطاع أن يمد جسرا سريًا بينه، وبين زوجتي التي كنت احبها تمام الحب، ولم يكن بحسباني أن أمر بذلك الموقف البائس، أبدا. ولم اكن قبل ذلك الآثم – إلا كائنا مستقرا.. أعود إلى بيتي بعد عملي بكل أمان، واتزان، ذلك كله قد حصل لي، وأنا اصدق انطباق السماء على الأرض، ولا أصدق إنها ستقبل بذلك الأكثر تعاسة، عشيقا، وهو النقيض مني، ولا يزيد

طوله عن نصف طول الرجل العادي .. عندما يضحك كانت أسنانه مفرعة إلى اتجاهين غير متقاربين، وله عجيزة كبيرة، كما لو كانت لخنفساء، ولا أحد يصدق بأنه لو جلس لما استطاع أن ينهض..

كنت احدق في وجهه، احسسته صادقا، ثم تنهد بحسرة متابعاً القول:

ـ اتعرف ماذا كانت تقول لي؛ بأنك لو فكرت بامرأة أخرى فأني سأضع لك السم في الطعام، و طلبت منها أن نذهب إلى (عيادة الطبيب) لنبحث عن سبب عدم الإنجاب الذي كنا نشكو منه طوال عشرة أعوام متوالية.. لكي نحدد السبب ونقهره، بعد أن قهرنا طوال تلك الأعوام التي مرت علينا، وكأنها أسبوعا واحدا.. كان حبي إليها يفوق حبي للحياة، وعندما وصل أذني خبر إثمها، لم أصدق، ورحت اضرب ذلك الذي اخبرني بكل قوتي حتى كاد أن يموت بين يدي. وكأن كلامه لم يكن إلا مؤامرة دنيئة للنيل من حبنا المنتصر على كل الظروف، وعدت إلى البيت لأخبرها، لا لاعاتبها، وجدتها قد حزمت حقائبها إلى جهة لا أعرفها، عند ذلك بدأت أراجع الأمر والخبر!. قالت لي زميلتها:- بأن زوجتك مخلصة، ولكن نتائج التحليل بينت سلبية أحد الطرفين، وموكدة ان الطب سينجح يوما بعلاجه الناجع)، واستمر يقول:- (فأرادت الطلاق لأن هناك من شاور بأذنها،

بأنك نويت أن تتزوج عليها، و كاد يذبحها من الوريد إلى الوريد، و قالت لي الأخرى:- هو الذي ورطها بتلك العلاقة، وكما فعلها في مرة سابقة مع امرأة أخرى قبل سنوات، زميلتها أيضا، وقالت الأخرى:- كانت ضحية جمالها وإهمالك لها، لم أك بتلك البرودة عندما قابلته في ذلك المكان، كنت انطق تلك الكلمات، و هو يسمعني، إذ بقيَ متهدلا كالمشلول، رأسه إلى الأرض.

أنا لم أكن مفسدا لحياتك مثلما أنت تفعل!

بقيَ يقول منفعلا وكنت أحسه قد بذل مجهودا كبيرا لاجل أن يصدقه صاحبه الذي تصنع الإصغاء إليه، ويبدو لي أن طريقي قد طال علي لاني لم انزل في المكان الذي كنت أود، فلقد شدتني الحكاية، التي بقي يقول صاحبها (كانت كلماتي واثقة ومليئة، وكأني أحسست بان الكلمات لم تكن إلا الأقوى من أي فعل.. رغم أني عرفته، لا يسمع أحدا، ولم يك يحبه أحد من كل الذين عرفوه.. عهدت كلماتي البانسة لن تصل، ولا قدرتي تجعلني أعادل فعلته بالمرأة التي فارقت).

فجأة نهض جليسه، وهمَ هو معه. وراحت القصة التي شوقتني تفلت بنهايتها مني، وتمنيت أن أكتبها بطريقة أخرى، غير ما جاءت.

زمنٌ بارز

١

سيدي العقيد:-

اكتب إليك التماسا مضادٌ عمر سيبتدئ، دون خوف من خزر عينيك التي تهددني بالسجن ، أو بالواجبات الخطرة، ولا من إشارة يديك الفانية.

بتَ. الآن بعيدا عن سيطرتك.. أكتب بتأن وبلا ضعف.. فصارت حريتي فيك أيها الداجي اكبر من حرية عصفور حلق في الأعالي... الآن وأنا أحاول سبك هذه السطور الجرينة إليك يتملكني ضحك كثير ، فلا يدعني أضع الحرف في الصميم.. اضحك متذكرا صلفة أفكارك كانت تدل على شخصك المهزوز، وأنت تحاول ان تحشوه رزانة، وتملأ وجهك تجهما وأنت لم تع كيف لا يمشى الإنسان مثل الحمير على أربعة.

اضحك منك الآن واجتاز خطواتي الأمينة لأتمكن من ذم نفسي فيك، وهى التي استحقت ذلها الذي فرضت.. ذلك لأني كنت بالغباء الذي أهديتك فيه يداي، وأنت تقيدهما ..كما تقيد الراحلة في إسطبل مكشوف..

اكتب إليك بضع الكلمات هذه لأحلَ عن نفسي عهدا قطعته بأني سارد إليك جزء مما تعرض وجهي لبصاقك النتن.. كنت ساعة تلك لو فضلت الغطس في بركة (خراء)، فلا أشمَ رائحتك الزنخة، لكن رتبتك الحاجز الوحيد بين الكرامات المهدرة، فأثبت لك بأنها محض وهم، ومنزلة سقوط... أيها التعيس.. أكشف لك إحدى الحكايات التي جرت وقائعها كالماء الموزع على مسالك سوية.. لكنك لن تفهم اقسم بالكرش المتهدل، وبعينيك الغائرين كعين تمثال.. بأنك لن تفهم أبدا، و لن تصبر على الجوع لحظة واحدة.. لم تعرف الحيرة والتفنن بإظهار مكارم الأخلاق.. بتَ معروفا لي مثلما خبرتُ حذاء التدريب..

عجباً سيدي العقيد خليفة حفظك الله من قلمي الصغير، الذي يتعثر من كثرة اللججَ الصعبة التي حوتها ذاكرتي، أستطيع مواصلة ما تمنيت جهرا..

٢

كان البطل كلما يتأخر يجد ما يأتي :-

١.فاتحة مقامه تحمل صورته، و(لافتة) مدونة بالخط العريض، سوداء على بداية الزقاق تحمل اسمه.. وكل مرة يعود.. الأطفال والشيوخ والنساء، تهرب منه فزعة كأنها تظنه جثه تمشي..

٢.زوجته تجد عشيقاً يمدّها بالذي تحتاجه في غيابه الطويل..

٣.أبوه قد تزوج إحدى الأرامل، وراح يبني بها بعيدا عن اخوته الصغار..

٤.الزقاق اكثر نتانة.. الليل اكثر دهمة .

٥.شقيقته انتفخت بطنها، وهي لم تزل عذراء..

٦.زوجة صديقه تراوده، عن نفسه، ويصعب عليه التخلص من مضايقاتها..

٤

يقال إن السيد أبو خليل قد اصطحب معه زوجته إلى بيت العقيد خليفة تودداً كي لا يكلفه عناء الهجوم المقبل وكي تمتد أواصر العلاقة بين الأسرتين ..

كان السيد العقيد على خلاف دائم مع زوجته، فاعجب أيما إعجاب بأبي خليل، ورحب به ترحيبا حارا، مما جعله يأتمنه كل الائتمان، وجعله ينسى كلما يربط الآمر بمأموره تكررت الزيارات، تبادلوها، بإخلاص ودود.. حتى إذ جاء اليوم الذي خبط أبو خليل رأسه في أقرب جدار، عندما شمّ رائحة العقيد بين نهدي زوجته!! .

٥

لم يكن العقيد يمتلك شيئاً.. لكنه بين يوم وليلة تمكن من مشاركة أبي خليل، معمل الطحين الذي يملكه، وبعد أيام آخر تمكن عليه كاملاً، دون أن يدفع فلسا واحدا، وبقي أبو خليل على فراغ راحة اليد...

٦

عندما تنبه أبو خليل إلى الهاوية التي ما زال يسقط فيها.. قرر أن يغتسل، وان يبتدأ من جديد، وما أن أحس العقيد به من خلل مجساته الخاصة.. كلفه بواجب عاد منه نتفا !!.

زمن العزلة[1]

١.كان وحيدا في كل مكان.. يفكر، ويدخن بإسراف شديد، يحلق خلف سحبه المتكدسة في الأمكنة المغلقة، يطير معها أحيانا إلى البعيد ، ومكانه يتبدل من حين إلى آخر بطرف بصر، يتداخل الزمان بالمكان إبداعا، و يتشظى حلمه إلى عوالم، مثل شظايا زجاج متكسر. أفكاره البريئة تتبلور مع الأمنيات، وتطير مثل عصافير في جنان رائعة.. تزقزق الوهم..

كلما كان وحيدا يتنفس الهواء عميقا.. يود أن ينزله إلى أقصى خلية فيه.. حرية في التنفس لا يعادلها شئ..علمته عمق الأفكار دون عناء.

كان يكتب عزلته القصية.. بإحساس، لتبقى له هذه الكتابة تعويضا له عن فضاء ما سدّ عليه بإحكام. وجهه الكلمات، وقبلته القلم.....

---

[1] نشرت في جريدة الزمان١٨ /٧ /٢٠٠٤م

٢. في تفرده، وأحاسيسه، وقوالبه.. يضيف إلى كل ما يقرأه شيئا لاجل ان يكون ناضجا بتلك القراءة، ويضيء بجذوتها الطريق إلى نفسه... يكتشف ان ما فاته غير قليل وعليه ان يعوض عما قد فاته ..هكذا العهد من حوله..في سباق معلوماتي... ضاع في التيه من لم يكن مستوعبا، ومفتوحا للتعلم. وتظل تدور تلك المسافات باتساق مع صدره المتنفس بقوة. مع عيونه التي ترى عمق البشر.. نظرته الاستكشافية تسبر عمق الفكرة، و تخرق العواصف الغامضة والأيدلوجيات المبهمة، اذ يستشرف ما وراء (الغيوم السياسية).. يحللها لنفسه، يقتات على الخالص مما ليس بريئا. فليس بالطعام وحده يحيا الإنسان . بالتدوين، بالموسيقى تعبر به عربة الوقت المنطلقة بأقصى سرعة.. محلقة بارتفاعات جنونية لا حدّ لأحد تحمل طيرانها الشاهق ذاك بالكتب، والمكتبات جموع القلة وقلة المجموع .

٣.يفهم الذي تراكم فيهم.. وهم بلا أجنحة "ينطنطون"، وان قفز الضفادع ليس كطيران الطيور.. يريدون ما ملك من أجنحة.. يبغون الفضاء الذي يتسع منه كل حريته، ويتنفس عمقه الشاسع.. بطيبة قلب يقدم لهم ما لم يتمكنه الناكرين..

كان يستشف نكرانهم البغيض، و الغل الغليل في نفوسهم الضيقة. النفوس الضيقة، التي لا تحتمل اكثر مما مقدر لها ولا يدرك بعد فوات الأوان.. بان لكل شخص من الاحتمال مما ليس لغيره- الأقل إبداعا..الأقل إحساسا..

كان يقدم كل تلك الأشياء على النسيان،لاجل التجربة التي لا يخاف منها، ويعرف أنهم حتما سيطعنون المواسم بالصدأ. ويمرضون الورد باليباس.

٤.الزمن الذي امتلأ بالأقزام يرفض رفضا شديدا اعترافه بالعمالقة.. بصلابة الرأي.. بالهشاشة. يقسمون الأصل إلى اثنين، والاثنين إلى أربعة.. يبعدون القريب نكاية ليقترب البعيد.. مشهد غابوي من الفطرية... البدائية في وجوههم التي يتهربون بها من الرقي بحجة التمسك بالميثولوجيا معلنين عن ما لا يفهمونه، بأنه كان مفهوما. يسير في المعاني، ويعطيها انتشارها.

٥. كان وحيدا في وحدته، يحب ان تقترب المسافات البعيدة، وتعم الاكتشافات الخضراء كل مساحات الرمل المحروق بسالف السيف القائظ.. وما من مؤيد.

ينتقصون بإسفاف جاهلين كل ما غاب عن قناعتهم.. يعلم انهم لا يعلمون ما يعلم عنهم، والجيل الذي يليهم.

٦.حقيق به أن يستحي من نفسه قبل أن يستحي من الآخر. فالكذب على النفس حقيقة بلادة، وتيه ذات. من كان يدرك ذلك، لا يحيق بالبطلان، إذ نفسه تتسع في الذات البشرية.. فانبرت إليه ستارا تمزق، او حائطا فاصلا تهدم، القوة التي يكتشف فيها ضعف الآخر. كان الوهم اكبر من الحقيقة، و سعة العالم لا تحوي حيرته ويحدد روابطها،لأجل ان يقننها بتحديد المتضادات وصناعة الأسلحة..

٧.كان الثاني من الأمر الأول.. له الحرص على ما يحب. كان يحب موقف الوجه الواحد.. مؤمنا بان ما لغيره لا يصح له، وما كان إليه لا يجوز لغيره...

٨. قال لنفسه:

أقمت في الزمان مكانا، وفي المكان زمانا.. فلم أر اكثر خسة من الخيانة.. بعدها لا يصح إلا الفصل والفراق!.

٩.قال لنفسه:

كانت كتبي هي كينونتي، وصرت فيها باحثا.. معقبا .. كالمحارب الذي يتمرن بسيفه، ليزداد معرفة بعصره، وهموم

شعبه.. كانت المعرفة مفتوحة القوائم، وأنا احلـق طيرانـا تارة، وأخرى سابرا لأعماق البواطن، ماحقا ما أستطيع من قيد للعقل بإثبات ما أستطيع إليه سبيلا.. اكتـب الجـوهرة المكنونة، بفكرة مسكونة.. امضي قدما، لا احفـل بـضيق العبارة.. معولا على قصّ من الخيال.

فاصلة زمن

يرخي عليّ الزمن سدوله، و يمضي بي إلى الوقـف، ويطول. فيفيض المكان من حـولي بالثبـات، والحركـة.. متداخلا مع بعضه، مرتجا كأنما نقيضا متصارع مع نقيضه. كنت أسير بلا هدى في الطرقات العامة، والخاصة.. محاولا محاورة الطيور الجارحة بلسان تفهمه، مترجيـا الأشـرس لاجل أن لا يزدرد الصغار الزواغب الآمنة فـي أعـشاشها، وان لا يمزقها إلى أشلاء، وأكـسب ودّ المتـسلطات علـى ازقتهن، لأجل أن لا يسقطن التهم على المحـصنات اللاتـى يحببنّ أزواجهنّ، ويحرصنّ علـى أبنـائهن، و بيـوتهن... بلسان ذرب، معسول، يعطي القناعة، ويعد بالـشفاعة. ولا ادري كيف يسرح فكري، ويستـسلم إلـى تلـك العاصـفة الهوجاء، التي اقتلعت ذات يوم أركان داري، و سلبت منـي طفلي، وزوجتي. وجردتني من مملكتي.. لم أكن أعي شـيئاً مما ينتابني من تشنج لا إرادي.. زبدٌ ابيضٌ يفـيضُ علـى

شدقي، وتفلت مني السيطرة على فعاليتي. يبرد، ويتصلب جسدي، كقطعة خشب، و فكي يتشنج.. أعضُّ على لساني دون شعور بالألم، حدّ إدمائه، ويضيعا بؤبؤا عيني؛ يعيث باستقراري، ويطيح بيّ.. بعد خسارة لن تعوض؛ إلا الاستسلام لصوت ندائهما، المستغيث، الدائم، وكأنه يحدث الآن في رأسي، المليء بالمخاوف، المليء بالأوهام، و أنا لا حول لي، ولا قوة، وعندما سئل عن عظمة المصاب الأليم الذي لحق بيّ، قالوا:

ــ بأن النهر فاض وأخذ منا ما أمكنه أخذه!.

بقيت ضحكتي تجلجل في الشوارع، والحواري، والأزقة. مثل عتب حميم، يتحول إلى أغنية دائمة بالنشيج، أغنية حيّة ترفل بالدعاء السمح، وتذوب مرهفة على الشفاه المرتجفة من الخشوع، تدخل ضمن الفطور، وبقية الوجبات.. تضايق كل المتخمين، وتقضّ مضجع المجرمين... كجرس خطر يخطرهم بأن الله يمهل، ولا يهمل، وان من تاب سيدخل آمناً إلى مضجعه، وسينعم باستقرار هانئ، وسيكون متخلصاً من الفيضانات الكاسحة التي ربما تجتاح البيوت.. في غفلة آمنة، و العواصف

المدمرة التي تقتلع السقوف، وتحل كلعنة هادرة. لا أدري أن كنت حقاً أتعامل مع ذاتي بمحض إرادتي، أم يسيرني قدر ما، أسير مترنماً بالكلمات، مزهواً بما اعتقد، و محذراً كل من بقي على ظلمه؛ أن يتحسب لليوم الذي لن يرده إلا الله. فأيٌّ من حولي، يرجعني إلى بيتنا مساءً، وتشكرهم أمي العجوز، وتحضنني بشوق، كأني أعود إليها بعد غياب طويل، ظنّاً منها باني قد ضعت منها إلى الأبد، وفي اليوم الذي يليه، أعود متوسلاً إليها، عساها تميل إلى رجائي، لأجل أن تسمح لي بان أخرج وحدي، فلم تكن توافق، إلا بصعوبة، وكل مرة تكون أصعب من سابقتها.

٢.صوت زعيق فرامل السيارة جعله ينتبه بكل حواسه.. إلى ذلك الحادث المروّع، بعدما هرست سيارة مسرعة طفلاً، وأمه التي كانت تروم حمله، وهو مكسور، أثر لعبه في الشارع، فأمتزج الدم بالطين الذي تصيّر بركة وحل سوداء، وقماش!!.

٣.الزمن الثاني:

وجمهُ اليأس، بمكانه؛ شلّته الأفكار، والمخاوف عن المشاركة. نسي كل ما حوله، وتنصل عن كل شيء تاركا الكيس الجلدي، الذي أعطته إياه أمه، لحمل الخبز من الفران.. ترك العالم خلفه منشغلا كلا بشغله، واخذ يركض، خلف السيارة التي اختفت كشبح اخترق البعد البصري، وطواه كما يغلق باب المستحيل.. بقي يعدو بأمل أن يسبق الأحداث قبل أن تحدث، و الكوارث قبل أن تحل.. كأنه بقي متسلقاً زمن ما، يملأ ذهنه، مندفعا بكل طاقته، محاولا الإمساك بشيء ما، يظنه الخلاص، فتركض خلفه مجاميع من الأطفال، مصفقين له، ومغنين، وهو يحاول التخلص منهم، بكل ما لديه من مقدرة على الهرب، إلى خارج ما بلغه بضجيجها!.

الزمن الأول:

حاولت التفكير جاهداً، أمام طلابي بعد أن سألني أحدهم، عن حالات المادة؛ الغازية، السائلة، الصلبة، وأستمر قولي : هناك حالة رابعة هي النار، وحالة خامسة، اضطربت الأوصال خوفاً من المجهول، فلم أستطع القول، جاهداً ..

تعثرت الحروف، واختلطت مع بعضها، وتصاعدت الهمسات فيما بينهم، شلّتني الأفكار، والمخاوف دون أن ادري، ما الذي استغرقته من الزمن في التفكير العميق، الذي قطع الصوت، و أبقاني في عزلة صمت قاهرة، عزلتني عما حولي.. كنت مسكونا في تلك الماهية، مسائلا، نفسي أن كانت هي "الـ... ؟ "!.. ارتجفت شفاهي، وصار لساني ثقيلاً، و لم استطع أن الفظها؟

الزمن الثالث:

شعرت بأن قلبي سقط إلى موطئي، عندما سقط في وحل الشارع؟؟

أحسستُ بشيء غير عادي،هزني هزّا عنيفاً، فأخذني بيسر، حراً، مأخوذاً.. بقيت أسير حراً، خلف طفلي الصغير، وأنا أرغب أن يقولها لي: (بابا .. بابا)

الزمن الأول:

وجدتني أفكر ملياً، ويأخذني الوقت، دون أن أعيه...شلّتني الأفكار، والمخاوف كأني ادخل إلى دائرة،

وتوصلني بدورتها إلى أخرى اكبر، وهكذا تستمر دورة اللولب المكررة إلى التلاشي.

الزمن الثاني:

وقف أمامها، ينظر إليها منتظرا ردة فعلها، ترى هل هي الآن مشتاقة إليه.. بقدر شوقه إليها. كانت تقف في دكان صغير، تعتاش منه، منهمكة في عملها، مثل نحلة دؤوب في خليتها. عيناها نافذتان على كل العالم الذي حوله، حاول سؤالها، لأجل أن تنتبه إليه، فلم تلق له بالا.. كانت تتصرف أمامه، بتجاهل تام، و كأنه غير موجود..إلى درجة انه شك في نفسه، ثم استغفر ربه اكثر من مرة، تحسس وجهه بأنامل يديه، ثم كرر معها ما بدء به، دون جدوى، لكنه قطعا، كان موجودا، وليس وهما بها إنها غير موجودة، ولم يتماد بذلك الظن، بل على العكس تأكد من نفسه، بأنه لم يكن كذلك.. انه يتحرك، يحلم، ينطق، يرى، يسمع، يتذكر، ويتفاعل!

الزمن الثالث:

عندما رأيت ذلك الطفل الراكض، وهو يسقط في وحل الشارع؛ وجل قلبي.. احتقنت ذاكرتي، وهاج بي الضجيج، شلّتني الأفكار، والمخاوف، فصرت منقطعا عما حولي، ولا أرى أمامي غير ذلك الطفل الذي سقط في شارع لم يخل من السيارات المسرعة، عازماً على إنهاضه، كي لا تدهسه سيارة عاجلة، وأن أوصله سليما إلى أمه(قبل موعد محاضرتي الأولى)!.

الزمن الثالث:

لحقني الفران إلى منتصف الشارع، لأجل أن يناولني الكيس المليء بالخبز، وبقية النقود. لكني أخذت اركض بكل ما في من قوة لأجل أن امنع الحادث، قبل حدوثه، أنقذ ما يمكن إنقاذه، كنت مسكوناً بالوجوم.. ذهني مليء بالماضي، الراكد، ولم يكن سوى وهماً؛ أني أستطيع إيقاف الزمن، أو أن امنع الحدث من الحدوث.

الزمن الثاني:

تحرى عن المرأة صاحبة الدكان، فقالوا :

ـ أن زوجها كان مدرسا قبل أن يعمل صيادا للسمك.. توفي غرقاً منذ زمن بعيد!

الزمن الأول:

أصبحت أمامها أشك بكتلتي. حاولت الصراخ بـأعلى صوتي، محاولا أن أكلمها، بكل السبل، لكنها لم تكن تراني. حاولت لمسها، وكانت دافئة، وشهية، فلم تستجب لمسي، بينما النار تمور في عروقي، دون أن تشلها الحيرة !!.

وقفت حزيناً وعينا أمي مليئتان بدموع ساخنة، شلّتني الأفكار والمخاوف. و أشتدّ بي الوجع ..

٤. الجنون يتفاقم إلى حالة وعي، و الوعي يتفاقم إلى حالة جنون، وعي الجنون، وعي، وجنون الوعي، جنون !!.

روى بعضٌ ما لم يرو بعض[1]

تترقرق ضحكتها على بياض التذكر. صوتها العذب يتخلل صمت الليل الموحش، كحنين عات تعزفه آلة الكمان، المعلقة، بحقيبتها الجلدية السوداء على الحائط منذ زمن طويل، جعلها الغبار بلون آخر..كابية، مسكينة ..تستدر العطف، والرأفة...مثلما دولاب الملابس الذي يرش رائحتها كلما انفرد احد أبوابه، أو مرآتها التي مازالت تمسك بصورتها الدافئة بإشراق يملأ الأرجاء حيوية ودعة..

(ـ كنت تلعبين معي بمهارة الدجّال المحنك)

يمرر أنامله على الذكريات المتصَيرة أعمدة، يستند اليها البيت الجميل برسوخ ثابت.. يلبد متذكرا عزفها البديع في فراغ الليل الفضي إلى مصابيح ركيكة، خنقتها العتمة...

---

[1] نشرت في جريدة الاسبوع الأدبي السورية، وفي جريدة الزمان..

مسدلا جفنيه بفرح خفي منتصرا على الجراح، بعد اشتياق جارف، فمازالت لمساتها فراشات ملونة ترفرف في كل مكان من البيت الذي بقي دونها يعاني من صمت مطبق، يفكك التفاؤل، ولا يعطي من الهناء قيد أنملة.. كلها خسارات تعددت.. (أغرقت كل سفني في بحر كذبك الكبير..كنت تصفين لي ماردا عظيما يزيد طوله على الثلاثين مترا.. قد سكن أمعاءك، تصفيه بدقة بالغة كأنك تريه بعينيك شاخصا كحقيقة..تقولين انه يعمل على إيذائك بقسوة كلما كان يراك تفعلين ما لا يريدك أن تفعليه معي لتتقيئين دما، و...) كانت اكثر من حكاية في حكايتها يتوق إلى إشباع نفسه من سحر السحر...غائصا في الحلم اكثر لأجل أن تعيد كلماتها من جديد.. يود المعرفة بعد فوات الأوان.. ليته يستدل إليها، ويطلقها من أسرها تلك الأميرة التي سلبته عقله.. كان واثقا من تهيؤاته، ما أن خرجت من البيت غاب أثرها، وراحت كحبة رمل بين الكثبان.. ليته يراها، ولو لمرة واحدة... دخلت حياته كعابرة، وأضاءتها وهي آسرة.لم تكن وهما أبدا.. كانت حاضرة، وتملأ له ذهنه بصخب. (ولم تكن من

مكان قريب لأتجلى الأمر.. رغم أني عرفت ما لم يكن في الحسبان. رأيتك تجرحين لسانك ليخرج الدم مع القيء... شغلتني بألف شاغل.. ولم أحظ بالحقائق الكاملة... بل تصيرت مع أوهامي مكملة بعضها البعض.. كنت احرص عليك كأنك سر حياتي رغم تقتم الظرف وصعوبة الفرز). تضحك بعذوبة ثم تشرأب حمرة حلوة على خديها مثل تفاحتين ناضجتين حان موسم قطافهما..(أصابتك حمى شديدة من جراء تلك الليلة المزمجرة تجاوزت فيها حرارتك ٤٢ C ، وبقيت تهذين بأسماء كثيرة كنت اسمع بها للمرة الأولى، وحوادث أثارت فضولي، ووضعت جهاز التسجيل قربك، وسجل لي حتى صوت الطبيب الذي جئت به لاشفائك... كان الهذيان مفتاحي لما لم تكشفيه). غيمة ندم داكنة حجبت عنه رؤية ما استدرك... ندم لأنه صارحها بما عرفه عنها.. جعلت منها المكاشفة امرأة غير متوازنة. وحدث ما لم يكن منه بدّ...حزمت قرارها ثم توارت في نهار لم يدركه بقيت تترقرق على بياض التذكر...تواصل القول، وتكاد كلماتها المجهشة تخنقها:(- الحب وحده لا يكفي..

الريح وحدها لا تدفع المراكب الكبيرة إن لم نرفع لها أشرعتها).كان أنيقا ولامعا مغلف الصور.. الذي تصدرته صورتها بثوب زفاف ملائكي (من يومها أغلقت الأبواب والشبابيك.. كنت حريصا أن لا يراك أحد ما عندي!). تضحك بأوركسترا بالغة الشدو كنهر دفاق:- ساعة الحرج يكتشف الإنسان!.. عيناها تحفران بعمق، تحركانه مثل بيدق مسلوب القوة..لا يدري متى يمدّ خطوة نحو جادة الصواب. فرساها متأهبان للانطلاق.. تكاد عيني تحوطاها كي لا يهربا... يومها كانت طرقاتها شديدة على الباب وصدى الدقات أيقظه من حلم جميل..كان زمهريرا عاصفا بالمطر، اسكت الكلب الشرس القابع عند عتبة الباب. فتح الباب دون أن يعرف من الطارق ؟ كان يعرف بالضبط ماذا يريد الطارق.. يريد الالتجاء قليلا من زحمة الطقس اللعين.. كان مخمورا حَد العجز ليلتها . جمال بهي انتصب أمامه مبلولا بقامة ممشوقة ذو وجه دقيق الملامح كأنه صحوَ فضاء زاخر بنجوم رائعة.. عجز لسانه عن النطق بأية كلمة. كان الليل يومها ليلا كثيفا في حلكته والمدى طوحا كيد غريق

يستغيث.. تقول – يومها حدثتك عن كيفية هروبي.. من الزوج المخادع الذي جعلني اخسر زوجا لن أعادله بالدنيا، وعن الليالي المرة التي أشعرتني آلامها بالضياع... لم يكن بيتك، إلا المرفأ الذي ابحث)..ينتهي الليل وتسكت الريح فتعطي الشجرة ثمارها..أنفاسها مواعيد تفتح الأزهار...(أحيّك على مدى الأيام الرائعة التي قضيتها معك..لقد علمتني أيامي التي سبقتك الكفاية.. كنت لا اعرف الا شيئين مترادفين هما العمل طول اليوم أو النوم بعد ارهاق.. ألا تتذكر ليلة اللقاء الأول؟ أتذكر طريقة تنفسك. الريح عاتية..أكاد اسمع احتدامها المريب الآن) هي أيضا كشفت له ما أخفاه عنها بيسر، اخفت عنه ما قرأته في دفتر مذكراته، كان يظنه بعيدا عن متناولها، روى فيه بتفصيل عن فقدانه لزوجته، وجنينها في يوم واحد..حدث مهول، ليس بالأمر الهين..وقعه احدث زلزلة مدمرة في ذاته، وبقيت تتفهم ما كان على المرأة فعله، فصارت له تعويضا بعد الصدمة.. لولاها لتخلخلت من تحته الأرض.. كادت الشوارع تبتلعه!.أعاد ما أخرجه إلى درج مكتبه، وافلت

جناحي الذاكرة لتطير في الخضم المؤنس.. محلقا في النغمات الشجية لصوتها الرخيم.. يحول عينيه إلى الشباك، يأخذ سيجاره، ويمد بصره بعيدا..أوركسترا قائمة بلحن جنائزي ذلك الغياب الشاسع.نهض متثاقلا وأخذ ملابسه الداخلية متأهبا للدخول إلى الحمام.. رمي بالسيجارة دون عناء البحث عن مكان أمين لها.. يود التخلص من هموم كثيرة علقت برأسه.. يود التخلص من نتانة ما تطرحه مساماته من قرف زري.. يريد تطهير ذاته من تعب.. نفض عنه ملابسه الكاكية. صار عاريا كما طرد آدم من الجنة. فتح الصنبور وراح الماء مصفقا يود حفر الصلصال... ظلّ يتأرجح بغير توازن.. متذكراً ما أرادته أن يتذكره ... كيف التقى بها للمرة الأولى، والمطر شديدا..(في المقاهي صرت بعدك أتابع الحكايات الممزوجة بأوهام بليدة، إذ أسمعها لا تغني من شئ، سوى لهوَ بتبادله لاعبي (الدومينو) بهمس ضائع أناء ضربات اللاعبين العصبية.. تطوف بألف لسان بدلا من أنشودة الصمت البليغة، وتصير الحكاية بحكاية أخرى لها ألف جناح، محلقة في الأزقة بين النسوة اللاتي

يخلطن حكايات حرب البسوس بالصور الملصقة على علب السردين.. كنت حذرا جدا، لأني كنت أخاف عليك... تعودنا على أحداث غير قابلة للنسيان ..لم تكن القصة هكذا، أبدا.. لقد تغير مجراها الحقيقي إلى مجر آخر لونه من الخيال الخصب... بالعزف البديع.. يومها حاولت إيهامي بأنك ممسوسة بجن مريب..حاولت أن أصدق رغما من قناعتي بأنك تهومين.. و صدق إحساسي. كنت شاهدة على جريمة، وتظنين اني لم اعرف من ذلك الأمر شيئا، ولم تكن تعرف علمي بذلك، و هناك من يتبع أثرك، وثمة خيالات أخرى ..أقصد كنت تحبكين القصص المقنعة التي تخفي تحتها حكايتك الحقيقية.. كنت افتعل التصديق..سحرني ما تحفظين من معزوفات عديدة.. كنت أكاد اجن كلما تحكين على آلة الكمان أحلى أمنياتي..آلة طيعة بين يديك..اكتشف فيك كل لحظة امرأة تغويني حكايتها، وتشدني حد التشبث بها). خفف من قوة الماء الساقط الذي أنعشه قليلا، وقف طويلا تحت الصنبور دون حركة.. صوتها الجميل يتسلل..كأغنية تطارده. يحكي لها بصدق كل حكاياته... ذات مرة، حدثها

عن تجربة القطار..(الذي كنا نركض خلفه أطفالا نزهو بلعبنا الجميل.. قفزت إليه لاستريح عليه من ركضي ورائه. بعد أن هدني التعب، لكنه زاد في سرعته، ولم يتوقف. أخذ يصفر بقوة، مجمجما في الفضاء، مبتعدا بي عن أهلي.. عن مدينتي.. كانت المدينة تهرب مني بعيدا..بسرعته الفائقة ..في اللحظة تلك قررت أن اقذف بنفسي على الأرض متحملا الأذى ومشقة المشي مسافة طويلة !..)...عيناها مملكة لا حد لها.. يخرج من الحمام دون أن يجفف جسده من القطرات التي بقيت عالقة ..يمشي متأرجحا، مطأطأ رأسه إلى قدميه يثقله الندم البالغ.. مصغيا بكل حواسه لما ترويه آلة الكمان من داخل علبتها.. (لقد باتت الحان القلب لا تنسى، لا يمكن إسكاتها.. شجرتك ممتدة بجذور قوية إلى أعماقي.. بات من الصعب علي التخلص منها ما لم يتلف جسدي)

أنا جادة في ما أقول؟

بقي عاريا أمام النافذة المفتوحة،

(كنت موقنا بأنك هاربة من زواج لم تقبليه، ولم اعلم بأنك كنت متهمة بقتله!)

أثلجه الهواء البارد... وأخذت أسنانه تصطك من شدة البرد القارس.

– أخذك القطار إلى مكان آخر...

زمن علبة الحليب الفارغة

لم أكن أتخيله، فحسب. بل أراه، ولا يراني. كنت منشغلا به، حدّ إني أسمعه بوضوح جليّ، كحقيقة دامغة، واصطحبه في سيارته القديمة التي يكسب بواسطتها قوته اليومي. فأدور معه طوال النهار، في شوارع (بغداد) التي اكتظت بأنواع السيارات، ولم تسقط منها هيئة المرور أي موديلا قديما منذ عام ١٩٧٨م، فبقيت رائحة الدخان الملوث مزيجا خانقا يملأ فضاءها، ولم تكن فتحات الهواء الموزعة بغير انتظام في السيارة تتمكن من طردها، ولم تنفعني أبدا، قطعة القماش الصغيرة التي أحاول بها تنقية الهواء الذي أتنفس.. اغلب ظني أني استطعت رسم ملامحه بصورة شبه كاملة، و جعلت من القارئ أن يتملى معي وجهه الحاد التضاريس، أراه طيبا، يستحق مني كل تقدير.. ثمة حزن عتيق مترسب في أعماقه، خلفته تلك الأيام مذ كان جنديا

يصاحب الموت، تعرفت على الكثيرين أمثاله، ولم انسهم مذ أيام حرب الثمان العجاف.. ذلك البطء الذي لم يفارقه مذ مطلع شبابه.. خلف حزنا مقيتا جعله لا ينظر جيدا لما حوله.. وجهٌ شاحب من كثرة دخان لا يفارق أنفاسه.. ظنه يتنفس عبر سيجارته ما فاته من هواء منعش.. كنت الحظة حائرا منذ ثلاثة أيام، لا يعرف سبيلا لتدبير مبلغ قليل يبغي به تصليح جهاز التلفزيون، من بعد أن قرعته زوجته بأشد الألفاظ مرارة، ولم يمتلك أعصابه يومها، فخرج حائرا يلف الشوارع، ويشتكي لكل من يركب معه.. الأمر الذي أزمّه.. ولكني قررت أن أمدّ له يد العون، فوجدت فكرة ذات مرة، افترضتها له أنا (مبدعه)، ليجد في مرة لم تخطر على باله... كيسا فيه ثلاثة أرباع المبلغ الذي يحتاجه لتصليح جهازه العاطل... بدا لي ذهنه منشغلا في كيس النقود.. فحاول أن يجد أحدا ما يسأله في أمر تلك الهبة السماوية. (لو لم يجد لها صاحبا، خوفا أن تكون لإنسان نسيها في سيارته، و هو حتما سيعود إليه)، كنت أنظره يتحسس الكيس، ويعيد حساب المبلغ.. في اقرب غفلة، فمرة يحمد

الله الف مرة على ما وجد من مال لم يكن في حسبانه، وتارة يريد أن يبرئ ذمته من إثم ما يمكن أن يلحقه بإنسان ما. فانه ما تعود أبدا على سلب أحد حقه، و لا يعرف فعلا سوى أن يقول بأنه سينتظر أربعة أيام حتى يكون له المال شرعا، و ما لم يعترضه من يسأله عن ذلك الكيس بأوصافه الدقيقة، و ما يحتويه... ولكنه بقي متكتما على ذلك الأمر، و سكت عن الثرثرة التي كانت تلازمه كلما صعد معه راكب.. لأول مرة في حياته اشغل ذهنه طوال الأيام الأربعة في الكيس المصنوع من القماش، وحوى النقود...

فبعد اليوم الخامس، قرر أن يتصرف به، و يأخذه إلى ذلك (المُصلّح)، ويحرر منه الجهاز الذي قارب على الشهرين، مركونا على أحد الأرفف المنسية، وهو بعيد عن بيته، و لا يملك ثمن التصليح..

في تلك الأثناء لمح من بعيد رجلا يرفع يديه، مؤشرا الى سيارة أجرة جديدة، لم تقف، وتمنيت أنا أن لا يقف إليه، ولكن ليس كلما يتمناه المرء يطوله؛ فوقف صاحبنا عنده قائلا مع نفسه:

– (حتما هذا الرجل الوقور بجبته، وعمامته سيضع حلا لحيرتي، وما عانيت في ما مضى من الأيام.. عساني أستقر على رأي بخصوص ما لقيته، فهو من ابحث؟)..

أشاح الرجل الوقور إلى الجانب الآخر، وكأنه لا يريد الصعود في سيارة قديمة، فنطق صاحبنا ببراءة، ورجاء:

(مولانا).. اصعد سأوصلك حيثما تريد مقابل دعائك بالتوفيق.

ما أن سمع الرجل الكلام حتى رحب دون أن يعلق بشيء، ونصف ابتسامة ارتسمت أثناء حمده لله تعالى.. بعدها قرأ سورتين من القصار، وصار يبتسم لصاحبنا الذي بقي منتظرا الفرصة المواتية ليعرض عليه قصة النقود التي وجدها قبل أيام أربع.

وجدتني اسبر أغوار فكره جيدا، فوجدته قد قرر أن يختار علبة الحليب التي كانت ناعسة في يد الرجل ذات الخاتم الذهبي، وهو يشع فوق الأدمة البيضاء، كان يحمل العلبة.. كما يحمل التلميذ النجيب كتبه، فبادره صاحبنا مستهلا:

موكد انك عانيت يا مولانا بالحصول على هذا النوع من الحليب؟.

فأجاب بعد استغفار الله تعالى:

ـ لا يا بني أنا ذاهب إلى (الشورجة[1]) اجلب هذا النوع من الحليب.. لأنه يناسب جميع الأعمار، والأذواق.. وانا أوزعه مجانا على الناس المتعففة!

كتمت ضحكة كادت أن تسقطني في فخ الفضيحة، ولكني تداركت الأمر، وبقيت مركزا بانتباه لما سوف يحدث.. فرايت صاحبنا قد حرك رأسه بالإيجاب، وقال برهبة وخشوع:

جازاك الله خيرا يا مولانا الكريم..

وبقي الرجل الوقور يبسمل، ويحوقل دون أن يوقف اصابعه عن ضرب خرزات المسبحة التي تصدر صوتا متواصلا، يتواشج مع صوت محرك السيارة المتواتر بالاهتزازات.. بين زحمة الإشارات، وضجيج الأبواق.. فضيع صاحبنا فرصته في مواصلة السؤال.. ما بين تململ

---

[1] مركز تجاري كبير في بغداد.

وتأجيل.. بحثا عن فرصة أخرى مناسبة.. حتى وصل به إلى السوق.. وراح محاولا الوقوف في مكان مناسب، بحرص، لتقليل الجهد عنه والوصول به إلى غايته..

لكن الرجل قال، بلا مقدمات، كأنه يرسم لشيء آخر:

ـ أريد منك خدمة أخرى يا بني أن تنتظرني خمس دقائق كي أعود بصناديق الحليب!.

بقي غانبا دقائقه الخمس، وعاد إلى صاحبنا الذي بقي في غاية الانشراح على غير عادته، تبين لي ذلك من تقاطيع جبهته التي لم تكن متراكبة فوق بعضها كعادته، كأنه كان في أوج سعادته.. ظل منتظرا يطوف حول سيارته لمعرفة ما فيها من نواقص، ومزجيا لأي وقت قد يهدر. وما أن قدم الرجل حتى هلل به مرحبا أحسن ترحيب.. كأنه غاب عنه طويلا. و بقي ينتظره بصبر نافد. ولكن الرجل عاد شاتما لاعنا تاجر الحليب الذي لم يرض بيعه صندوق الحليب بالسعر السابق...

فبادر الذي أراد ولا يراني مقاطعا:

كيف لي أن أخدمك.. يا مولانا؟

نبر الرجل الوقور بسرعة بالغة، كمن لا يريد أن تفوته الفرصة...

لعنة الله على المال.. احتاج منه إلى تكملة ما أعطيته للتاجر. و سأرجعه إليك مع أجرتك المضاعفة بعدما ترجعني منزلي بأذنه تعالى..

همهم بعد قوله بآية من الذكر الحكيم سندت ما قاله، فاخرج صاحبنا كيس النقود، كالمسحور، ولم يحض سؤاله عنه، بفرصة تليق، وسلمه كاملا بما فيه، ومن فرط الخشوع اخرج له، أيضا كل ما في جيبه إضافة بقية ما في جيبه، فانطلق الرجل الوقور غانما بالنقود إلى عمق (الشورجة) مهمهما:

الحمد لله انك رجل تسعى إلى الجنة!!.

بقيَ صاحبنا في داخل سيارته ينتظر الدقائق بعد الدقائق... حتى توالت الساعات بعد الساعات... بقيَ ممسكا بعلبة الحليب الفارغة، منتظرا..

و من بعد ملل، رماها، إلى الشارع.. من بعد أن وصل به الوقت ليلا، قرر الانطلاق عائدا، يائسا إلى بيته دون أن

يبيت في جيبه فلس واحد يشتري به خضارا، وخبزا ككل يوم.. أما أنا فقد تركته على تلك الحال، وحيدا، و مضيت دون أن أهبه مبلغا جديدا يفك من أزمته الجديدة، التي ستبدأ مع زوجه. و لكنه أول مرة تجرأ بصوت واضح شبه باك، مصوبا إلى عينين مليئتين بعتاب مرّ، قائلا:

ـ حتى أنت يا .....[٢]!.

---

[٢] كانه اراد ان يقول بها حتى انت ياخالقي!!..مقولة شهيرة ابتدعها شكسبير.. (حتى انت يا بروتس)...

بساتينُ القلب.. أني بك مقيم زمنا

بقى كلما يتحرك مقبض باب، يوقظ في داخله خوف مقيم فى خلاياه، خوف لم يستطع أن يتخلص منه، ولو كان وراء باب مرتجة بألف مزلاج... إذ رسخ في أعماقه منذ أول زمن وعاه.. ليدور بقلبه ويخطفه كمارد ساحر، ويسجنه في أرذل السجون.. أزاح الملاءة جانبا، وقفز من السرير بسرعة تاركه يحدث صريرا خافتا، و حركة تململ لذيذ تطوف برائحة نعمة دفء قاهر.. تضخم الصوت الخافت فى هذا السكون وتصاعد عاليا، ومهتزا. حاول أن يمدَ بصره من خلل ثقب الباب لكن الفتحة الضيقة لم تسعفه. توقف عن رغبة قاهرة أن يفتح بها الباب، مفاجأة.. وبعد لحظات من المحاولة اليائسة للنظر وصل إلى أذنه وقع

خطوات هادئة.. تجرّ بمهل وتأنّ، كعادتها تذرع الممر إلى ضجيج يوم عابر.

ترى ماذا ستقول إن اكتشفت أمر من معه؟..

فتاة جميلة هادئة العينين والأنفاس كبستان يعبق بالزهر. تنهد بأمل جديد، فاسند ظهره الى الحائط متهالكا، متمسكا بخيط دخان يجول معه الركن المعتم.. يريد أن يهدى ذلك البحر الذي تعالى هدير في داخله المضطرب.. تسربت إلى ظهره ببرودة الجدار، والبلاط التي تسربت عبر قدميه العاريتين.. أشعرته ماذا يحتاج عمقه الملتهب.. اقترب من سترته المعلقة مخرجا علبة سجائره، مرة أخرى، لا يملّ الذي أمتد أسطورة غمرت عقله، عاوده حنين جديد، لأن يعيد ذلك التجوال الحقيقي في تضاريس الوجع الشهي. تموجات بديعة، وتقوسات لينة سكنت تحت الشرشف الحريري الناعم.. اشتعلت رغبته مجددا، ترك عقب سيجارته، يفلت من أصابعه إلى الأرض ثم داسه بقدمه العارية، دون أن يعي.. كاد أن يصرخ من الألم، لكنه اقترب منها متتاليا... يجر نفسه بغيبوبة عقل مؤجل.. يوما بعد يوم.. وليلة بعد أخرى.. كل مرة يحياها، بمعييها دفنا...

منغمرا في النشوة، وتبقى متواصلة، لا يعرف الابتعاد عنها.. بعيدا عن قسوة أيام الشتاء الباردة، والحاقدة. الزمن البطيء يتوازن بما يمور في العروق، يفيض به التشوق الاني لما يهيم به ويغلبه.. رائحة أنثوية الأنفاس.. كل شيء متوقف..

ـ(فينان)..

ينطق اسمها، وتتململ من جديد.. ما زالت الخمرة تفعل بها ما لا يمكنها أن تفعلها به. يلمسها بأنامل حيية، تفاصيل لون قزحي يشرق من بين البياض الجائر، ويكون الصمت حدًا فاصلا بينه وبين الجدران الصماء، الملساء كالطيب الذي يخور بالأنفاس، ويحولها إلى لهثات غير مسيطر عليها، يصرخ باسمها، وكأنه يحاول أن يتخلص من دوامتها التي تلفه بسورها العاتي:

ـ (فينان) أصيخي..

يأتيه صوتها مغمغما، ودون فائدة، متسائلة:ـ

ماذا دهاك.. نم فالليل مازال في بدايته..

تمد إليه يدها تدعوه أن يدخل إلى الفراش. لكن بصره بقيَ حبيس تلألؤها المكتنز.. غير مبالية بما يخافه، بقيت

تغط في استقرار ثابت.. شفتاها زهر رمان يتوهج، يناديه إلى بساتين تمنى أيامها.. أنفاسٌ تتلاحق، وأنفاسه تمتزج بأنفاسها. يلفه القلق والأرق والخوف المقيم.. وثمة هواجس غامضة تعصف في رأسه.. بقي مدينا من اجل أن يقيم في بيت من انتشله يوما ما من الضياع في غربة وصلها بعد أن خسر كل آماله، وبقيت له معها سنوات دراسته التي لن ينسى ما وهبته بكرم.. كان أيامها يافعا تهزه الأقدار.. استأجر غرفة من شقتها المعلقة على مدينة مشتعلة بأضواء لا تلامسها الشمس. وراح يعيش معها طوال دراسته وهي معه مثلما ينتظر الفلاح المواسم.. كانت ذكية وكان الأذكى.. يعاملها كامرأة لا ترضى بالحياة التي قضتها. كان يعرف خطواتها التي كانت قبل قليل، هادئة تجول البيت على الرغم من قلقها القائم عليه، فبعد كل هذا الزمن يعود إليه السؤال كيف سترضى بذلك؟ إذ يعرف إن المرأة تنكسر بامرأة أخرى. جحودٌ له مخلفاته الجسام. نتائجٌ صعبة العاقبة.. تكات الساعة تعلن عبور الهزيع الأول من الليل، فيهمس برفق في أذنها..

ـ أرجوك.

محاولته باهتة، وبكل بساطة أدارت ظهرها إليه، باقية تغط في نوم عميق، ثمة أفكار تنهمر إلى رأسه.. ترى ستنفجر في لحظة غيظ ما قد يؤذيه، لا يعرف أي شيء.. يحميه من كل رغبات الشيطان الذي يسكن أعماق الإنسانية... اليأس يأكل كل ما به من رغبة.. نهض تاركا الغرفة ومتوجها إلى فناء الدار.. بعد أن أعاد غلقها جيدا وما أن أطل من الممر حتى عهد مصباح غرفتها مازال مطفأ، ربما تنتظره بصبر نافد..

دفع الباب برفق وكان مفتوحا.. دخل عليها بعد أن أصر الباب وراءه دون أن يدع الباب يصدر صوته.. كملكة تنام بكل أمان، ومثل عروس في يوم زفافها الأول، والمكان ممتلئ بعبق عطر يشده.. أراد أن يتلمس وجهها.. لكنه تراجع.. لأنه جافا، وهادئا في غفوة أراحت فيها غضونها المتوترة.. كقلعة كنيبة. رائحة حروب استنزفته بلا طائل... يا لهذا الوجه الهادئ من تعب السنين ويا لهذا الإنسان المليء بالرغبة.. تكبره هي بضعفي عمره.. فيكاد أن يرى ذلك الكائن الذي يسكن أغوارها..

تنبهت مبتسمة.. يديه تقوده في ظلام الغرفة إلى الكنبة التي توسطت الغرفة.. وراح يتابع تفاصيل الوجه المتغضن، ذلك التعب الذي لم يثنيها، ليته يستطع على فعل شيء من اجلها و ليس من أجل نفسه. رغبة قوية مثل تيار جارف.. يرد جميلا.. يطيعها مثل تابع..

كأنها قالت: (ليست هناك في العالم امرأة تمنحك ما أمنح)..

طالت الدقائق.. تأخر الفجر..

أراد أن ينهض تاركا إياها تغطُ في نوم عميق. تسبح في حلم خفي من أحلام. لكنه بقي برغبة في البكاء، يريد اطفاء جذوة الحريق الذي شبتَ في ضميره، وفي كيانه..

كيف يفعل؛ أن يذل روحه.. كان يخاف أن يعود إلى هناك. ثمة رائحة تشوق أن يتنشقها... لم يقتل، ولم يسرق.. ولم يرتكب أي إثم... كأنه قد أجرم هناك.. في يوما ما، سيأتون إليه، متناوبين عليه ضربا بلا رحمة.. سيكبلونه ذليلا ثم يقذفون به في زنزانة تملأها العفونة والعطن... هو لم يفعل أي ذنب.. فمن أين جاءت عقدة الخوف هذه، وترسبت أعماقه.. فقد جعلته خافتا، ومطيعا لكل من ينفذ به

مارب. أي حزن تملكه.. فعاد كسيرا إلى غرفته النائمة في مكان يذكره بانحطاط بدأ يتكاثف في اللحظة.. لكنها بقيت نائمة. كانت الغرفة كلها تغط في صمت كالموت.. لكزها بقوة، فتعقد حاجبيها دون أن تقول شيئا..

تحاولين تعذيبي..أودّ أن أعترف لك ما فعلته بنفسي.. فاسمعي أرجوك.

لم تسمع ولم تعره اهتماما... فراح يعبئ ملابسه في كيس.. مقررا مغادرة المكان إلى...

بقيةُ زمن

ما عليّ إلا أن أهول ما أتخيل، وأستمر في حكي حكاية متواصلة، دون توقف، و اجعلها مشوقة بما يجعلها، تغريها، ترغبها بالبقاء عندي، والتشبث بي، فأسردها ممتزجة بما بقي عندي من الأسرار التي ما كان علي أن أبوح بها..

الخطوات تعبر بي حيث لا أدري، عشقا أخطو.. حلما أخطو.. سائرٌ مسافات هائلة، أناء خيال بلجج البحر الذي لم أره، إذ بقيت حجيز حروب لم تعط أكثر مما يعطي البحر الضاحك، عشاقه. نسمات طيبة أتخيلها تهبُّ، مضمخة برطوبة لاذعة بلذة، نشية.. مستقرا في مكان فيه أتلاق الذكرى، و التفتح... لكن كيف لي أن أبقى.. خزين ذاكرة مليئة بالضجّ، والتناقض. كيف لي أن أبقى بعريّ أمام مرآة ذاتي؟... بقيتُ أراقب سنينا عجافا تركت سنابكها كتجاعيد

على جبهتي التي مرّ عليها الضوء، فأنعش خطوطا عميقة، مظلمة بحافة جريحة، فضحت تعبي الدائم. أقف مبهورا، وحيدا، دون رفقة حنون، توغل الصبح البهيج في العتمة، تذبح ما بقيَ من ثقالة، متمنيا بقائها على الصدر، حبيبة تنزع عني الصمت المقيت، فتخرج شذرات الضوء، من الكلام ما يمتع، وتنشر حولي أنغاما ملونة كحباحب تطمس كآبتي.. تمزج الماضي الملئ بالحاضر الخاوي.. تذوب الحدود، حتى يتسع الزمكان...

احكي حكاية بعد أخرى، وقبل أن تنتهي الحكاية العماد، اربطها ببداية لحكاية أخرى، من اجل أن لا يبقى الصمت موحلا بالتراخي، وذهني يمور كالتنور الذي تسعر ناره.. (رأيت بعض الزيت الطافح على سطح الماء الذي نويت أن آتي عليه حدَ الخلاص)

ما عساني أن أفعل أن تذكرت لك أحلى ما يمكنني تذكره...

ذلك شأنك

الأجمل الذي عندي لا يحرك الأجمل الذي عندك

تجنب الكذب ولن يخيب الطريق إليّ! .

سأظل صادقا فلا تهربي من وحشية حقائقي؟!

هدلت بصوت رخيم، كالمعترض

وأن تتجنب الشاطحات؟

لك الحقيقة..

ثم ضحكت كفجر إتلق. جابت عيناها وجهي كأنها في حلم، فتنهدت منطلقا في تجاويف بؤرة وسعتها عيناي، لتحتويها. وبقيت أستدرج الظل الممتد إلى الحاضر المتجدف. كان الليل موغلا في امتداد الصبح البهيج، كأنه يصرعه.. يقاوم احدهما الآخر، وما برح الأمن مفتقد مذ كاشفتها بخوفي عليها من الحقائق الموجعة، فأردت أن أقول بان الحرب الاولى لم تستطع ان تاكل الثانية، او الثالثة.. الحرب لاي طرفين تخلف فجائع، وهزائم..أوشكت أن اعترف. لكني تفاديت ما أوشكت أن ادخل اليه دون تخطيط مسبق، فقلت:

كان أبي مقامرا شهيرا قبل زواجه وكان معروفا أن وعد برّ رغما عن كل شيء..

أكمل و لا ترتج مني التصديق؟

سبق له أن تراهن بان يهب غالبه في عراك الديكة أول مولود يأتيه!.

استللت سيجارة، ورحت أتابع فضول عينيها المتطلعتين بانبهار، ثم قلت محاولا استمالتها، بكل ما في الحكاية من شد..

ــ ما زال المطر يهطل في الخارج

ابتسمت بمكر، ولم تجبني، فاندفعت معتصما بحصني.. مواصلا الكلام، من اجل أن لا يتراخى الصمت بيننا، وتهمّ في جمع أشياءها، استعدادا لاجل ان تغادر المكان:-

ــ عيناك تذكراني دوما بعينيّ زوجة عمي!

عاودت ابتسامتها الماكرة. كأنها تغطسني في مداهما الكستنائي الرائع، أطيافٌ أمنيات توشك أن تتحقق. بقيت منقبا في دهاليز اللمعة الساحرة.. باحثا عن سرّ.. يجعل الحكاية لا تتوقف، وكأن الألف ليلة قد تقلصت بيننا، لم تكن (شهرزاد) بل كانت (شهريار) يمنحني فرصة المضي في حيوية الحكاية.. بقيت مغامرا ومجازفا، حتى تطيل معي المكوث، و أبقى دون ذبح، فكم حرب تركتنا مذبوحين دون

رحمة، كالفراق، القى فيه الحتف. عيناها ما يدفع للبئر بالماء.. حاولت إخفاء اضطرابها، بتساؤل حذر:-

ــ ما وجه التشابه؟

ــ ربما فيض الأنوثة...

ــ حاذر أني أغادر المكان إلى الأبد..

تداركت مقاطعتها لما أردت، فأردفت بعجلة، محاولا الحفاظ على ذلك الايقاع المتوازن..

ــ كانت في مثل عمرك.. في نحو الثالثة والعشرين سوء حظها جعلها ترتبط برجل جاوز الحادية والستين كعمي....

اقتربت صاغية، أكثر.. (زأر الوحش، معلنا تأهبه للانقاض.. كأني أستل سيفي، لأغمده في جسد الوحش المنقض عليّ)...

ــ أحذر بدأت تسقط في كذب واضح!

- أعرف جيداً بأنها لم تكن سوى حقيقة مائلة بعض الشيء!

(تنهدت وأرتفع الطائران الوحشيان الساكنان صدرها، كأنهما أوشكا أن يطبقا على فريسة بريئة)

ـ وما كان في مقامرة أبيك؟.

ضحكت بانتصار، وشاركتني هي بابتسامة غير عميقة المتني. تعامد الظل حتى فاض لجّ الكلام إلى حيث لم أعرف فيه كيف بدأت الأحداث، لتنتهي!. كنت متيقنا بأني لو أجلت، فأنها لن تقبل..(كما قبل شهريار ذلك من شهرزاد)..

- سمعت من جدتي عن عمي أنه ذهب إلى الرجل الذي غلب أبي وأكرمه بديلاً عني قصرا منفيا كان قد كافح من أجله خمسة عشرة سنة إرضاءا للرجل الغالب وأعادني إلى أمي.. (المهرة الصغيرة بدت تضيق من اللجام)... أخرجت منديلي ومسحت بقلق لأخفي اضطرابي. يداي أخذتهما الرعشة. عيوني أخذت تمدّ، خطوطا عميقة إلى عينيها. الريح في الخارج، تصفر والمطر طفق على الزجاج والجدران. الليل يتمادى، والخوف يتقدم. فتحة قميصها تكشف عن صبح بهيج.. ما الذي سيكمل الليل دون حلم؟.(الذاكرة تنحل تدريجياً.. الخيوط المشوقة تفلت)، حلقت حقيبتها إلى كتفها. فقلت:

بودي لو أكشف لك شيئاً مهماً عن علاقتي بزوجة عمي الشابة..

قل ما تريد ؟(الريح في الخارج، ذئاب، حروب، وشرطة سرية شرسة)...

عرفتها امرأة كاملة الأنوثة.. ناقصة الوفاء..

تنهدت كأنها تغرز أنفاسها في صدري القاحل (عيناي تكتشفها)..

ماذا تعني؟

ـ سمعت عمي يوبخها بعد أن لحظها كثيرة الاهتمام بي.. مخبرا إياها عن شرّ دفنه طويلاً.. عن أخيه الذي كان بلا ....!

ـ تعني والدك ؟

ـ نعم وعليها أن تحاذر مما يشطح به فكرها نحوي لأنها عديله أمي.

انفضت عني بعينين مملوئتين بالاستنكار، ونهضت مثل عصفور مفزوع (أنقلب السحر على الساحر، قلت لنفسي)، ثم توجهت خارجا دون أن تكشف لي ما حلّ بها من شر. رميت عقب السيجارة تحت قدمي، وأخرجت أخرى بعد أن تمادى الليل إيغالا في الصبح البهيج. حيث بقيَ الصمت موحلا بالتراخي.. من بعد ان نكصت، ورحت محاولا النوم، لكني لم استطع.

زمن الإبن (١)

كان الليل ممتدا عليّ بلا ملل، و لم يكل الأرق مني.. بقيتُ وحيدا على فراش برائحة لم أحبها.. بعد أن بتّ عاجزا عن تنظيفه، مذ أصيبت رجلي في جبهة الحرب. بقيتُ أتقلب على جمر ملتاعا بانتظار فرغ مني. ولم يكن إلا ثقال علي، وأنا أنتظر صباحا آخرا يأتي فيه أبني بأجازته الدورية، ويزيح عني سقمي. المذيع أعلن عن هجوم آخر في قاطع بعيد عن المكان الذي فيه ابني. ساورني القلق لأني اكتشفت بتجربتي ان الموت دائما مخترقٌ جغرافية أي ائتمان. عرفت كيف تشظ نسمات الهواء الطيبة، وتتحول في لمحة إلى أجزاء من (عزرائيل) ليصادر الأرواح المطمئنة.. فبقي الليل (هنا) أكثر أمانا، بينما هناك موزع بالتعب، والسهر. الراحة

(١) نشرت في جريدة الزمان ٢٠٠٣م

(هنا) لا تأتي به. الأرق ساورني طوال انتظاري لأبني... عشرون عاما بين عمري وعمره.. امتدت بيننا صداقات... خصوصا بعد وفاة أمه، فبات بمرحلته أكبر مني. بتجربة، فعندما بلغوني بالالتحاق إلى فصائل الجيش الشعبي، جاءني يومها ناصحا اياي بكل خبرته.

كان الليل طويلا بانتظار صباح سياتي.. يا لقلة صبري!.. تناولت عكازي، ونزلت السرير بعد أن وجدت الساعة تشير إلى الخامسة صباحا، والشفق الرمادي اتسع في علو السماء. مازلت أعاني بطء الحركة. الألم يعيق تطلعي. فكرت بأن أفعل أي شيء يلغي هذا الخواء المقفر. خطوت صوب الحديقة التي خلف البيت.. مررت بالمطبخ واضعا أبريق الشاي على الموقد.. ووصلتها بعد جهد قويم. نظرت إلى أوراق شجرة التين التي زرعتها زوجتي، فباغتتني دمعات دافئة انحدرت على وجنتي.. كنت انظر إلى ما حولي.. كأن الأزهار تعلن حلاوة روحها.. كانت تعتني بأزهارها وطيورها كأنها تفتح لي أفقا لجنة موعودة، الأوراق متسخة بعد أن غطاها الغبار، عفرها، وأخفى ملامح بريقها، ركّبت الأنبوب المطاطي بصنبور الماء، ورحت أرش

الماء المندفع بقوة غاسلا به الورق الذي كشف عن لونه الأخضر الزاهي، بدأت الشمس ترتفع ببطئها اليومي، و شعشعت الألوان ببهجة أكثر من رماد بقايا الليل. ذهني يشرد بعيدا في ساح مجال حب أكل طوده الزمن الغابر بالحرمان المرّ و الأكتساحات المفاجئة. الماء ينزلق على الأوراق ويعطي للأغصان روعتها.. تأخذني إلى لجّ من آمال رائعة. كانت حبيبتي لا تضيع وقتا، تقضي أعمال يومها بعد أن تطمئن إلى نوم أبننا الوحيد ثم تبدأ بعزق ما في حديقة المنزل من طفيليات!

رن جرس الباب... لا أدري كنت واهما الليل بدأ يذوب تدريجيا.. ربما ساعدوه بتقديم أجازته يوما واحدا أكراما لسقمي.. بقي الإناء فوق الموقد يخرّ بصوت جميل. جرس الباب يرن بإلحاح شديد، أغلقت صنبور الماء، وتحركت إلى الباب بحركة لم تعد تناسب بغية القارع.. كنت أسمع لغطا وجلبة في الخارج، ففكرت ربما يكون جامع القمامة يهنئنا بالعيد.. ليأخذ كعادته (عيديته) من بيوت المحلة، واستدركت ان طبال الإفطار.. كذلك لم يأت معه.

بعد أن اقتربت سمعت جيدا ميزت صوت مختار المحلة يصيح:

يا أبا صابر.. أبا صابر..

همهمت للطارق:

أنا آت ..

ثم سمعته يقول لمن معه:

ألم أقل لكم بأنه موجود.. عمري ما كذبت عليكم!...

كأن ريحا خفية تحمل عبق مؤامرة ما، حاولت الحراك فلم أستطع.. حاولت جاهدا فلم أستطع، الطرقات اشتدت أكثر، فقال أحد الذين مع المختار بصوت غليظ آمر:

أخرج لا تخف.. جئنا للسؤال!

حاولت النطق لكن صبرهم نفد حتى ضربوا الباب بقوة همجية فانكسر، فرفرفت حمامة بيضاء لحظتها طارت من بين أغصان شجرة التين، وحلقت مفزوعة بعيدا.. باغتوني كوقع الصاعقة، بينما تطوحت مستندا على فضاء من خشب لم يتحمل ثقلي.. كما رجلي الحقيقيتين..

— لم لمْ تفتح الباب لنا ؟

— ألم تكن تسمع؟

ماذا تخبي وراءك؟

ـ مطلوب عندنا في مركز الشرطة!

أكمل آخر، مخففاً:

ـ مقبوض عليك!

بقيتُ مفجوجا تشلني التباسات شتى معلقا على وهم لم أتبينه، تقادحت عيون المختار تشع خبثا.. حدسي بأنهم جاءوا يطالبونني بالسلاح الذي فقد مني أثناء إصابتي (تفكيري لم يتحرك بحرية).. كأني تلقيت صفعة أطلقتني الآه الحرّى..

لم لا ترد؟

حملوني كدمية من قش، دون عكازي إلى المركز... تاركا أبريق الشاي على الموقد الذي كانت ناره تسعر باشتهاء.. انتظرت طويلا حتى يوقظوا (ضابط الخفر)، وبعد حين خرج بمنامته وعيناه محمرتان.. أوقفوني أمامه ذليلا ريثما أخرج ورقة صفراء من رزمة كانت أولها تخصني، قائلا:

وقّع هنا هذا وصل تسلم جثة ابنك.

رئيسٌ سابق لم اعرفه

يشدُّ عليَ الهواء الساخن، ويحوطني عباب قيظ قرف أقاومه بضراوة وجلد على مسافة تقترب بي من مشوار وودّته، بعد ان أثقلني قلقي وجعلني أتعثر الخطى، وفي رغبة قيء كثير.. بقيت تتصاعد كأنها لهب نار مستعرة في أعماقي فألجمها جيدا، وأبدأ بتجوال عيني في ما تعرضه المحلات المتراصة جنب بعضها على ضفتي الشارع، منقبا في الواجهات. فلم تبق لي إلا صيدلية واحدة في نهاية الشارع أسأل صاحبها عن الوصفة التي كتبها الطبيب لجدتي المحتضرة .

حرارة يوم لعين جعلني لا أسمع غير صمت يتخلله صفير ما، أسمعه وحدي، تعودت عليه. قلت في نفسي علي أن أحتمي من اللفيح الساخن بالظل الظليل.. كان الهواء ساخنا حاملا معه ذرات غبار تمتزج مع العرق المتفصد من

جبيني، متحولة إلى طين ثقيل يحسسني بقرف شديد (لو أجد الدواء لهان الأمر). طال الزمن، مضجرا إلى حدّ السقم. خطوات المارة لها إيقاع له معنى التحفظ من قسوة شمس تموز العمودية، تجيء سريعة مارقة غير مكترثة بالوجوه التي تمرها. بقيت غيرقادرا على تمييز من يمرّ جانبي. أمي قالت توصيني بعدم التأخر ..

(لو كنت أعرف الطريق جيدا لخرجت بنفسي)

مسافة ما، وأقترب من نهاية الشارع، لعلني أجد مأربي. قلت في نفسي.. (جدتي تحتضر وعلي أن أحثّ الخطى سريعا قبل أن تأتيها المنية).. كانت تقبلني كل ليلة، تحكي لي حكايات البطولة والأساطير والأحاجي .. تعودت عليها، أحس الآن وعلى الرغم من قسوة الشمس تحنو علي، وتطبع على وجنتي قبلتها الباردة.. عيناي طائران يحطان هنا او هناك ليكشفان لي طريق لم يسبقني إليه ظلي. بقيت خطوتي عجلى، ويتدفق سيل التذكر، وأنا أجتاز حانة تفوح منها رائحة حادة جعلتني أتذكر تلك الليلة المشؤومة. عندما بلغت الثامنة عشرة، يومها شربت كثيرا مع بعض اصدقائي، وغامرت لأحس بالانتشاء أكثر حتى نقلوني إلى

المشفى، مما جعل والدي يعلم بالأمر، قبل أن أغادر فراش المشفى ولقنني درسا لن ينسى، ذكرى أليمة..

بدا وجهي على واجهة الحانة مستطيلا وطويلا.. أضحكتني الصورة كثيرا، ورحت أتابع طريقي راجيا أن أبتاع الدواء المكتوب أسمه على الورقة التي تبللت من العرق، أفرزته يدي المضمومة، و لقيتني أرفعها إلى عيني، محاولا التأكد فلم أجد حروفها قد تشوهت..

لكن؛ يدًا ما حطت بثقل غريب على كتفي، كأن صاحبها اراد التوكأ عليّ، فالتفت مستطلعا نحوه فوجدت رجلا قصيرا له عينان عديمتا الرموش.. كأن شرا ما يختبيء وراءهما... احترت في مراده، حاولت تذكر اني اعرفه ام لا، ولم أستطع.. قبل أن أيقن بأن هذه المرة الأولى التي أراه فيها.. بقيت انظر اليه.. كان رثّ الثياب معلقا على صدره اغطية قناني مشروبات غازية، وقطع بلاستكية ملونة.. كأوسمة ونياشين حروب فاز بها، اضافة الى وشاح عريض من القماش لفه من كتفه الأيمن الى خصره الايسر، وايضا علق الى جانبه الايمن الايمن حافظة مليئة بورق جرائد قديمة دحست على شكل مسدس، بقي

يتحسسه كل لحظة، اثارني شعر رأسه المصبوغ حديثا وغير المصفف، لم يلق برجل في عمره، فقلت متوقفا يلفني بعض الارتياب:

ـ ماذا تريد؟..

ـ خاطبني باحترام؟

ـ ماذا تريد يا صاحب الفخامة..

زمّ شفتيه بحزم، وقال:

ـ طلبت منك ان تخاطبني باحترام..

ـ عفوا سيدي

ـ لم تسخرمني كلما مررت من قدام الحانة.. ألا يعجبك وجهي؟ ..

كرهت تهدله، وعدم استطاعته ان يثبت نظره الي. بعد ان تصاعدت من فيه رائحة كريهة، وكأن كلماته الممطوطة وجدت صعوبة قبل ان تصل أذني، فقلت:

ـ لم يسبق لي شرف رؤيتك من قبل..

ـ وكيف كنت لا تعرف رئيس دولتك؟

اردفت متهكما

ـ السابق طبعا..

ـ بلى

اردت ان اشاكسه، فقلت:

ـ لم اكن اعرف بأنك افلت من حبل المشنقة.. سيدي

توقعت ان تثور ثائرته، ولكنه اجاب من بعد تأرجح

ـ وكيف يعدمون رئيسا لم يفز بالانتخابات..

ـ خانك الحظ سيدي

ـ لا احالوني الى التقاعد..

ابتسمت للموقف، وراحت الابتسامة تكبر تدريجيا حتى صارت عاصفة حمقاء من الضحك المتواصل. فقررت ان اتجاهله وان لا أعره أهمية، فأدرت اليه ظهري، تاركا إياه في حريته، لجوجا غير واع لما يفعله، وبقي محاولا اللحاق بي بخطوات غير متوازنة.. كان مانعا الى الحدّ يمنعه من الانتصاب.. رثيت لحاله البائس، وتوقفت لأسمع ما يريد مني كاملا.. أنفاسه اللاهثة تهرق بوجهي برائحة نتنة، فلم احتمل، ولم اتوقف عنده، فبقي يردد ورائي :

ـ انت تستحق السجن المؤبد.. بل الاعدام!

كانت عيناه تلمعان لمعانا بلا معنى. فحاولت أن أتحاشاه، لكنه دفعني بقوة في كتفي كاد أن يسقطني على

أرض الشارع.. فأفلت من ضربة سيارة مرّت بسرعة جنونية. توقفت في الوقت المناسب، ونزلت منها امرأة كنت أعرفها في زمن ما.. عيناها شكلان لصحو من ذكريات وأوهام.. نظرت، وأخترقت أجزائي.. تصاعدت الدماء إلى وجهي، وشعرت أن حرارة الشمس قد تفاقمت أكثر، بقيت انظر الى المرأة الجميلة، وكأنها قد قالت كلاما جارحا لم أستطع تحمله منها: (لست خائبة الظن فيك.. فأنت أقل مما أتصور).

تنهدت بعنف وأشعة الشمس أنارت وجهها أكثر.. بدت لي أكثر جمالا من السابق وأن السنوات التي مضت دون أراها قد جمعت كلها في هذه اللحظة، وبددت الشوق الجامح. كل شيء قد ضاع. ركبت سيارتها بصمت، وانطلقت نادمة على زمن أضاعته معي.. بعد أن تهيأ لها بأننا أنا وهذا السكير- توحدنا معنا علاقتنا النزال العبثي في شارع عام.. كأنها قالت أيضا، لستما سوى مدمنين كادت الحماقة أن تقتل أحدكم..

ـ لماذا لا ترد عليّ أيها الجبان.!

(جدتي تحتضر وعلي أن أحث الخطى سريعا قبل أن تأتيها المنية)

حولت عنه مسمعي، واجتزته. ثم لحقني من جديد ووجدته ماسكاً أياي من تلابيبي.. عيناه غائمتان اكثر مما يجب، كنت موقنا بأنه في محض سكره لن يقبلها في صحوه. وهو بهذا الحال البائس يثير العطف والاشمئزاز معا كان يترنح كأنه معلق بخيط من الأعلى تتمايل به رجلاه إلى اليمين ومرة إلى اليسار لم يستكن ابدا. يشد بيديه على خناقي حتى أدمعت عيناي من شدة الشدة.. دفعته عني بقوة أسقطته على أسفلت الرصيف الحار، وأصطدم رأسه بعمود الكهرباء، وتفجر الدم من مؤخرة رأسه.. بدا أحمرا قان خضب رأسه بهتٌ لفعلتي الوحشية، فبقى في مكانه مستقرا يجهش مستدرا للعطف.. رمقني بحث وأنا أبتعد عنه مجتازا للشارع على مرمى البصر أتابعه وهو باق بمكانه الذي برك فيه ولم يستطع النهوض ..

تذكرت (لو كنت أعرف الطريق جيدا.. لخرجت بنفسي)، فجعلتني الكلمات أقل صبراً على مسيرة الخطوات التالية، نحو الصيدلية. وبعد لحظات وصلتها ودخلت و

مددت بيدي، بالورقة إلى الرجل العجوز الذي خبأ عينين زرقاوين هادئتين خلف نظارتين سميكتين. تناول من الورقة تحرك أمامي بخطوات رزنة إلى أحد الرفوف المليئة بالادوية ناولني علبة بيضاء ثم عاد إلى جلسته. كان الهواء مبردا أنعشني فدفعت الدواء الى جيبي ببطء بعد ان طاب لي الوقوف داخل الصيدلية... كانت خطواتي العائدة أسرع بكثير من قبل. ولكن صاحب الصوت المتحشرج عاد يلهث خلفي كأنه يبغي الثأر لما فعلته دفعتي فيه قوية. توقفت مدة اللحظات وكنت أشد حنقا من الجراء الذي لم بي، وقد بادرني قائلا والزبد الأبيض يتطاير من شدقيه على ملابسي:

ـ جبان..

ـ ارجوك من الممكن ان تكون مؤدب اللسان..

ـ تفرض علي ماتريد والله زمن!

كأنه قدر يلحقني حيث تحل خطواتي ..

ـ ماذا تريد مني بحق السماء؟

ـ أردت أن أعرف ما الذي جعلك تضحك عندما رأيتني جالسا في الحانة.. ليس من حقك فأنا رئيس وقور محترم..

أحترت فيما أقوله، ضاعت لغتي وغصّ صوتي، فأخذته من يديه وأنا أجره وهو يتطوح في الهواء يمينا ويسارا، كطائرة ورقية اوشكت ان تطير.. كان يمانع وأنا أكثر إصرارا، وأكثر صبراً على المهزلة. حتى وصلت به بعد جهد إلى الواجهة الزجاجية للحانة التي رأيت وجهي معكوسا عليها ..كانت سوداء مثل مرآة تعكس صورة كل ما أمامها، ولم يتبين للناظر من الخارج إلى الداخل شيئا، قائلا:

ـ أنت كنت تجلس في الداخل؟ أليس كذلك؟

ـ نعم..

ـ سأدخل وأجلس في المكان الذي كنته.. وستضحك علي بقدر ما تحب.. ثم تدعني أذهب إلى سبيلي.. ما رأيك؟

بقيت نظراته أكثر شروداً، وكأنه لم يفهم شيئا ولم يرض بالحل الذي عرضته.. كنت أحس بقلبي ينقبض تدريجيا، وكأن عطانته سكنت أنفاسي، ازداد عرق جبهتي وأبتل المنديل بصورة نهائية من غزارة العرق المتفصد من جبهتي.. حرت في تفسير ذلك لكني أبعدت من رأسي هاجس أن جدتي قد ماتت في هذه اللحظات الضائعة وأنا أحاول

التملص من هذا المعتوه.. تنفست بعمق وأنا أقول له بتوسل..

ـ ماذا ترى الآن؟

فقال بعفوية، بعد أن رأى صورتينا:

ـ شخصان لاأعرفهما.. أحدهما يشبهك..

حاولت ان اعيد عليه السؤال:

ـ ماذا تريد مني؟

ـ ان تقدم لي اعتذارا رسميا امام رئيس هيئة الأمم المتحدة؟..

زفرتُ بقرف، ثم ألتفت إلى ناحية الشارع وأشرت إلى سيارة أجرة.. أنقذفت بداخلها، وقلت للسائق-:

ـ أرجوك خذني إلى بداية الشارع..

تحسست الدواء بيد، وانا أحاول كتم قهقة عالية.

زمنٌ ما.. كان لي[١]

كنت قبل اليوم في زمن آخر غير هذا الذي تشاركوني فيه هذه الحكاية، وسأسميه بما يروق لي أن اسميه. [كونه زمني][٢] .. زمن كانت حكاياته الزهر في عطر الورد.. زمن لم يكن إلا وجعا، فللحكاية التي نويت أن ارويها عبر اسطر مزقها القلق، طعم زهر العلقم. إذ كانت من المخيلة المزدحمة التي تشبه البلدان المختلقة في ذاكرة المجنون.

---

[١] كتبت هذه التجربة من اجل التجريب ليس اكثر.. و قد كان قلقي مشروعا.. لانني افترضت منذ يوم السقوط يكون خلاصنا كالحلم المتحقق عنوة.. فينبغي علينا ككتاب .. ان نجدد بادواتنا الكتابية لنلحق بالركب الحضاري المتوقع..

[٢] ترد اقواس مختلفة الأشكال.. لن يتنصل منها المولف و لا يدعي أنها شكل جديد في الكتابة الإبداعية كزمن آخر أو ما شابه.. ولكنها أوجدت لغاية في نفس يعقوب..

بقيت قلقا أتابع صوت المذيعة الرخيم من الإذاعة التي تداخلت معها إذاعة أخرى لم افهم لغتها، حتى عدمتها، ولم اعد اسمع من ذلك الصوت البديع، شيئا. وبقي صوت المذيع ينطق [بلغة الهولولو[٣]] مطبلا عن حرب متوقعة. هكذا انغمر في سرد الحكاية من جهل سيكون في لحظة اكتشاف مني، لحظة فضول عندكم. أعيش بضع الدقائق القادمة متنفسا حرية أمل أوشك أن يتحقق، ومستمتعا في دفق حكاية قديمة كعربة تسابق الريح، حيث لا يسبق الريح إلا زمن رخوٍ كهذا الذي كان مفترضا بيننا.. يسابق زمن الحكاية، وينطلق إلى أبعاد لم اكن قد خططت لها. كابوس رعب يلفني بجناحين سوداوين ناعقا نشيده الوطني.. ليقوض نبوءتي. أقول مجنونا، ولست بمجنون.. [لان ما سيحكى لن يكون مقبولا في صفحات تالية][٤].. كانت

---

[٣] ايظنني أستطيع استخدام مثل هذه اللفظة.. دون أن اعرف معناها.

[٤] أصدر مجلس الأمن يوم ٨ نوفمبر/تشرين الثاني القرار ١٤٤١ والمتعلق بالية التفتيش على الأسلحة بالعراق. أتى هذا القرار نتيجة مفاوضات مضنية قام بها وزير الخارجية الأميركي (كولن باول) لأكثر من ستة أسابيع. حدد

الحكاية التي نويت أن احكيها، تطير فوق صوت الديك الصباحي الذي كنت اشتاق إليه.. لاني ما رضيت لها أن تأكل معي الخبز الأسود المستورد من وسخ الحدائق، خصيصا لحصة التموين الشعبي.. كنت اعمل ليلا ونهارا من السابعة صباحا وحتى العاشرة ليلا.. من اجل حفنة طحين تصلح للاستعمال البشري.. وكانت الإذاعات العالمية تغض النظر عما يبتلع قسراً، لاجل توفير حفنة من الباونات البريطانية.. لاجل أن تدق ساعة (بكبن) في الوقت المحدد [والله تمنيت أن يأكلني الذئب، ولا أن تلوكني كل تلك الخيانات].. حكاية صدرها شاهق يضرب كطبول فرح غامق، طراوتها بضّة وشهية، منسابة كما حمامة بريئة بين كفي.

القرار روزنامة زمنية مشددة كي يستجيب العراق، سبعة أيام لقبول القرار، ٣٠ يوما لإعلان العراق عن ما يملك من أسلحة دمار شامل فضلا عن وسائل إطلاقها، ٤٥ يوما كي يستكمل المفتشون أعمالهم، ٦٠ يوما لتقديم التقرير النهائي. أتى التصويت على هذا القرار بالإجماع، ١٥ صوتا من أصل ١٥. لم يكن هناك فيتو أو امتناع عن التصويت. صوتت سوريا الدولة العربية الوحيدة في مجلس الأمن على القرار.

{ترد أقواس مختلفة الأشكال.. أوجدت لغاية في نفس يعقوب}.. فكان يلبسني الخوف الذي لا يجعلني أحافظ على سرية وجوده، وانهل منه كل ما كنت أراه بديلا عن السوء الذي كان يلاحقني {من خطاياكم}. بقيَ يكرّ عليّ ليل، وآخر يفرّ مني، كأني مفجوج بينهما، عيناي يقظتان إلى حد الأرق.. بقيت في يوم ما انظر إلى زميل لي في الحرب السالفة، لا أستطيع نسيان الثقب الصغير الذي أحدثته الرصاصة الناعمة بصدر عازف الكمان في ليال موحشة، لا يحتملها حتى الذئب.. خذلتنا تلك الفتحة الصغيرة التي كانت بحجم الدرهم، وقد خرجت من الظهر بحجم برميل النفط.. خانتنا بعده الليالي الألف، وأوقفت ما كنا نحب سماعه من سمفونيات، رغم القصف. ذلك صديقي في الحادية و العشرين من ربيعه، أما الآخر، أيضا صديقي، فكان في الثانية والعشرين، ومن بعد نزول قذيفة بيننا، بقي رأسه بين يدي، بلا جثة، يقول لي سلم لي على (ليلى).. عيناه بقيتا شاخصتين بعيني، وابتسامة حرص عليها بكل ما بقي عنده من دم.. حملت الرأس كأني احمل دمية، وآخر أيضا، من جملة أصدقاء أخر، كان في الثالثة والعشرين يجر وراءه

أمعاءه ويركض كحصان أوشك أن يبلغ مرحلة السبق الأخيرة.. كانوا متسلسلين إلى المليون، كل منهم بعمر وكل منهم بمشهد مريع، مريب، مهيب، لن تقدر على تصويره مدينة (هوليود) الجبارة.. كلهم يحملون القصة إلى غير ما تنبغي عليه أن تكون عليه القصة. قصة حرب أولى بنظرات خرزة من محيط موبوء جلت قدرة على عزلي وحصاري عما يجعلني أليفا- اجتماعياً- قادراً على المكث بين أصدقاء سأختارهم، لكني بقيت وحيدا دون رفقة مستسلما للحذر الحدي وللعتمة في انتظار صباح قد لا يأتي.. تغطني قطرات ماء فصدها جبيني المتعب بعد أن {هللنا بعد وجد} فاض كالسيل، وجرف قسماتي إلى شكل تبين منه النزف، والتجهم. بقيت وحدي انقلب على نقائض نفسي، أتلظى في حرقة جراح عابثة بلا رأفة، كالقتعة[٥] تأكل ركائزي حتى أصبحت آيلا للسقوط.. كبرج مهدود {١١ أيلول}.. وحدي أقاوم اقدم جدران هذه اللحظات الحالكة، وأنا بلا قوة تقوض معنى الفجيعة ومعنى البقاء حياً نقيا دون عقم الابتسامة.

---

[٥] حشرة الأرضة

[يأتي من التلفاز.. ناعقا أغنية هزيمتي]. قلت لها ولم تصدقني: لست مسناً إلى الحد الذي يدل عليه شكلي..

لحيتي التي طالها وعاثها الشيب خرابا؛ خرائطا للقلق المتواصل.. حرمان في حرمان. أحرر رأسي من ذل المقاصد، ومن تفاحة حواء.. بعد أن أثقلوني بأفكار جوفاء.. جعلتني أتقدم في العمر دون أي إنجاز، والهثُ خلف وهم لا يشترونه بذرة تراب. (من السهل أن نجمع المئات من تعريفات (الشكل)، و (البنية) من كتابات النقاد والإستطيقيين المعاصرين لإظهار ما بينها من تناقض يبلغ من شدته حدا يجعل تركها افضل[٦]). (أحاول أن اغلي دمي العتيق، وافجر ذلي ولاهم لي سوى كسر حصاري،[واستباحة عدوى الوشى من جيلي].. ابتكر زمنا لمعشوقتي كي لا أرغى في اللهو الغريب.. أقول ما أقول بدراية، واحلم ما احلم دون وشاية).. أرنو إلى المذياع الذي سكت كقطعة خانعة.. بعد أن قذفته بمنفضة السجائر. وأنا أغمغم كوحش يائس.. تريدني أيها اللعين التخلي عن عرش الحكاية. أورث نفسي

---

[٦] رينيه ويليك - مفاهيم نقدية- ص ٥٠.

العزيمة.. من أجل أن أقاوم موتا كان كالليل يغرز أصابعه في عيوننا.. بوقاحة واستهتار، فلا صرخة تصل ولا منقذ سيأتي..

ولم تصدقني: أعيد ترتيب الحكاية، مثلما يحكيها الحاكي المحترف، بتسلسل هرمي يعتمد التصاعد، والزمن الواحد.. بإيقاع متواتر، بنغمة واحدة.. اغلي دمي العتيق [بلغة الهولولو]، وافجر ذلي، ولاهم لي سوى كسر الحصار من القالب الذي خبره الرقيب، و عدوى الوشى من جيلي.. ابتكر زمنا لمعشوقتي كي لا أرغي في اللهو الغريب.. أقول ما أقول بدراية، واحلم ما احلم دون وشاية.. أصارع تطلعا بقي مكبوتا {زمنٌ مقروءٌ}.

أوقدت عزيمتي في مبخرة وسرت كالدرويش باتجاه القمر. قلت لا احبك تسمعين دون (فيروز)، ولا احبك دون نبوءة، فأردفت مسبلة العين: أوقدت حيرتي.. أنزلتني فردوس جحيمك .. فصرت عازمة أن يكون حبك يقودني سربا من طيور مهاجرة.

أترى تسمح لي أمريكا بحمل بقيتي واكتبها بعد حرب الخليج الثالثة؟..

هكذا بلا موعد سابق كان أول لقائنا في حافلة نقل الركاب[٧]، يومها لحظت ذلك التشوه الخلقي في رؤوس أصابعها، ولم أعره أهمية، فانشغلت بما قد أوقعني في فخاخ اللذة.. سكنتُ صمتي وفكرت قائلا:

ــ هل تقدرين على فكاكي من محنتي.. كي اشحذ همتي.. و أنام في نجمة خلف بحر..

فرجت شفتها السفل كنصف طماطم ناضج، قائلة، عيناي الدهشة؛ دخانك أتعب يأسي.. بحبك قد أفلت الأمل. كان الصمت يمرغني بعينين تشرقان علي بأمل من صورة اقتطعتها من مجلة قديمة فيها برج مهدود. صدرها شاهق يضرب كطبول فرح غامق، وهي حمامة بريئة بين كفي.

وحدك الواشية بي سجينا هاربا

{مرغني صمت عينين شرقتا عليّ بأمل كاذب يا صاح}.

علام الفضيحة، وأنت أولهم أيها البترول، أتبيع أسرارك التي ما عادت تعتبرها أسرارا؟ فأنا كنت أحاول، ولم

---

(٧) من مكاسب الثورات التقدمية.

أزل أن اغتسل في النهر الذي لا ضفة له، و أحاول استباحة المفردة المائية كي افتحها قاتلا عطشي القديم [بلغة الهولولو]. يقول المذياع السقيم:- أتعرف يا صاح إن الوطن هو شكلا من أشكال الحصار التكنولوجي، والبيت هو آخر ما ابتكره علماء الـ... كسجن دائم تضع فيه أنفاسك الأخيرة، و...

امرر شفتي على مسحة ماء.. المزيد من القوات الهومبورغرية تدخل إلى كيس الطحين.. ذلك التطبيل المزعوم.. ربما لن يدل على ما أرادوا أن التلويح به.. اعرف (BUSH) و أعوانه التقليديين ليسوا إلا جملا باهته، للحشو الأيدلوجي، أصفارا على الجهة التي لا تقرأ.. اقصد دمى فارغة حتى من القش.. {يمنعني العذل، الجأ إلى الحلم}.. كنت دائما أركض باتجاه القمر الآفل، انتظار بناء مدنا هدها القصف اللعين[٨].. واصل المذياع خطابه

---

(٨) في هذا الإطار أعلنت مجموعة من الأطباء المحبين للسلام أن الحرب على العراق قد تودي إلى مقتل نحو ٥٠٠ ألف شخص، وإذا ما تحولت الحرب إلى النووي فإن أكثر من أربعة ملايين سوف يموتون

الإنشائي. حاذري من حلم لا يموت.. فهذا دمنا الذي فتحنا إلى مصائر الغائبين. {أراهم يتوافدون حقائق مفجعة}، غيرة امرأة فيها شدّ ينضج زمنها، كتفاحة الشهية.. أغطّ في عينيها واجد سرًا (ينهض أحد القتلى من رخامه ليوزع قرنفل الوعي). واصل المذياع خطابه الإنشائي {إن سكتت عما تراه تستطيع نوما هانئا} سيركب جثته ويحمل روحه على كفّ تسكت على الذل، و تعرف الخوف. (تسكت عما تراه تكون عرضة وعيك). واصل المذياع خطابه الإنشائي:
- {لكي احبك؛ أن تكوني ضوءا كاشفا في ليل حالك.. أن تكوني فرشا وثيرا بعد تعب.. أن تكوني المرأة الوحيدة على سطح الأرض.. أن تكوني روحي المنشطرة في جسد آخر.. كوني ماء بعد العطش، و كوني أمي لتراني عيناك جميلا}[٩].. كان القلب من الحجم الذي لا يفجره انفعال [رمحٌ وأيدي قوية] كانت الجبهة عريضة فأزاحت فروه الرأس [سنابكُ زحف بربري] كانت العينان مفزوعتان مما يحدث

[٩] إذا تعهدت أميركا لا يمكن لها إلا أن تنفذ. إذا هدّدت وجب عليها إظهار حزمها ونيتها الأكيدة للتنفيذ، وإذا نفذت وجب عليها إنهاء الحرب بسرعة.

[دمٌ اغرق المكان بالفجائع] كان الفم مكمّما بألف كم [ألف جلاد وجلاد] كنت كائنا لم يتوقف الازدهار فيه..{ من حجم إلى آخر قاومت مفردتي التي لم تتسع لما أردت فقاومتني وضاقت بي نفسي} قلت لها.. قد قاومت القادمين من جهة لا اعرفها.{أغير بمفردتي على صمت الليل الصاخب بالفجيعة}.. اطوي بك خوفي مطلقا من عينيك سهما مشتعلا في صدر عدوي.. شفتاك واحة، والعين بستان، والحب يموسق الطموح. طفر ماء من عيني.. سار كالدفق السيال خيار سلام. راحت الشرطة تستنكر الناس المسالمة.. من أين لنا العمل دونكم.. تنفجر ثمرة الطماطم من شدة شد شفتي. (بريطانيا وراء الباب، وفي جزئيات زجاج النافذة)، مكثتُ موزعا بين جدران. تزحف كلما تفوهت العزلة عن العيش المستقر، كدت أبولُ تحت أثق النخلة قبل أن تتساقط ثمرا شريفا:- احبك!.. [غراب الليل يأتي من الأقاصي.. كابوس رعب يلفني بجناحين سوداوين ناعقا ليقوض نبوءتي]... بلدان مختلقة في ذاكرة المحتال، كانت عيناها مغمضة، في انتشاء لم أفسره إلا حالة تقبل تطلب التمادي، وكأنها بقيت ناشرة ابتسامتها في أوداج قلبي، بلمعة طيبة،

و بين يدي شعر رأسها المنسدل بطراوة ندية نافضة عنها ذلك البكاء المرير الذي كان ينحت في عظمي، زمان الورد كل الفضاء الضيق، يؤلمني. ابتسامتها بدأت تشق عباب الصمت القائم، بليغة جدا، كانت الشفتان اللتان تنفرجان كأمل بلا انتهاء، فأطلقت زمردا، وياسمين.. فراشات ملونة حلقت في فضاء مطلق، وبقيت أصغي لتلك الرفرفات الهادئة المحلقة بخيلاء جمال أخاذ، فسألتها عندما أحسست إنها تهيأت لجواب: ــ وزوجك؟..

زفرت كأنها عازفة قيثارة من ذهب؛ نطقت حروفها بتشديد فاعل:- يُطلقني!..

وان لم يفعل..

سألتها، فنبرت بثقة من يدرك ادواته..

ــ يفعل!

فارق كبير بين ما كنت وما ألت إليه، وراحت تفتعل البكاء، خبرتي بها جعلتني أميز البكاء {أسلحة بايولوجية}.. فقلت من جديد، وأنا المتلكئ في السؤال، مضيتُ أبالغ بتصنع الهدوء.. وابدي ندما على المذياع الذي تصير اعرجا.

هل يقبل (حزقيال). إرجاعك لذمتي؟

مسحت بقايا دمعه كانت تسح على الياسمين البريء، فانبرت مثل فرس..

ــ له أولاده وزوجته؟

تنهدت، ثم واصلت تزفر:

ــ ستجده يفعل أي شيء من اجل أن لا يدفع فلسا واحدا..

ضائعة بين الأمواج، لا تدري أين سيستقر بها التيار البحري القوي.. قريبة مني، ولم تكن قريبة.. بعيدة، ولم تكن بعيدة، فقلت لها:

حيرتني؟

عجبا.. عشت معي نصف قرن وما زلت تجهلني؟!

قلت لها متوجعا:- ماذا؟..

كنت أحس بأنفاسها الساخنة تلفح وجهي، ورقبتي تهزني هزًا عنيفا، لاجل أن اسكب في عمقها ذكورتي المهراقة، فأوشكت أن تطلق إيعاز مخالبها كي تعجل بنضوج الثمر... تهتُ بين حروب القلب، والعقل.. تبدلت دنيا بأخرى

[بلغة الهولولو]، فلم تعد الأحوال كما كانت عليه... أفقدتني البيت، إذ أبقتني كالعصفور المرتجف لا يؤويه غصن أمين.

ــ بالقانون قد نلت مني!.

وكأنها بقيت تكشف عن ندم كان شاخصا نغل في عروقها.. عيناها الجميلتان بالدهشة، فيهما نور لم يخبُ أبدا، وما كأني قد كنت هجرتها كل تلك السنين، إلا طائعا، بالثمن الغالي. أفكر في ذلك الماضي المؤرق.. صدرها الشاهق يضرب كطبول فرح غامق، وكأنها حمامة بريئة بين كفي. قالت بهمس: كم كنا مجرفان وراء ما لم نكن نريده.، فأضافت: - طمع بنا من نظنهم خيراً!

أشياء غريبة بلا معنى تحوطني، تقيدني، وتريد قرارا مني.. فكرت وفكرت، فلم اصل إلى قرار، تحركت الأرض من تحتي، وصرت غير متوازن، قلقاً، ومنغمرا ببوحها الذي أراحني، ومنجذبا بشوقي إليها ــ أواه ــ ما اجمل ذلك الحب الذي كان.. وجدتها تغفو على كتفي ببراءة كأنها تكشف لي إنها تنام أول مرة. تصاعدت المعاني وخلفتني أصبو إلى حرية لا أريد فقدها نظرت إلى عينيها فقلت مذ ذلك اليوم:

احبك.. وليسقط الـ..

أفردت شفتاها، فأردت أن أذق ما حرمت منه طوال تلك العشرين الماضيات، كيوم واحد. لكني في غمر ذلك الانفجار تيقنت باني أتذوق شهدا من طعم آخر، قد أفسدته الأيام. لكني خيالاً تذوقت ما أتذكره جيدا، وصارت كلها حاضرة حتى تلك الليلة الآثمة، قالت :- احبك ..

كأني لم اكن اسمعها من قبل، مكملا ما كنت بدأته معها في تلك الخلوة بعد أن زلزل قلبي، وراحت الأنامل تستمر بالانزلاق على ذلك الشعر الذي تصيّر ابيض. بقيتُ أتذكر هياجي في آخر ليلة كنا قضيناها معاً.. كنت في غاية العنف معها.. ليلتها مضت في الاعتراف متحدية غيرتي، ضربتها دون شفقة، فأحسست باليأس تماما، بان تلك القصة ما كان علي أن اضطلع بأحد أدوارها.. اثبتُ فيها فشلا ذريعا، وخاصة؛ في تفويت تلك الإشارة المتعلقة بأظفارها الوحشية، والتي كلفتني قلبا تحطم بل تمزق، وانتهك إلى يوم الدين. دون أن أنسى انها رمزتُ الى الوحشية؛ لربما وجد الناقد اكثر من صفحة يحلل فيها رؤيته التي ما رأيتها - أنا المؤلف- وقد انتهت تلك القصة إلى الأبد، منذ اللحظة

تلك.. وعدلت إلى زمن آخر غير هذا الذي تشاركوني فيه الحكاية التي تروق لكم، عندما التقيت ليلى في حافلة عراقية أخرى، وبعد أربعة عشر عاماً.. قلت لها قد سلم عليك يا (ليلى) أحد مقاتلي الفيلق الثاني.. جاركم أيام بطولات نهر (جاسم[١٠])، جاركم المدفون رأساً بلا جثة.. (خطيّة) لا اعتقد بأنك تتذكريه.. كان يحبك من طرف واحد، و من المؤكد بأنك لا تذكيره أبدا..(الجنود منسيون رغم انف الخلود) لان النسيان لا يتجاوز الفوارق، وصار الموت العزرائيلي يجوب بيوت الحي الواحد مرة تلو مرة، فالتقط شقيقك، ولم تعد تهتمين بأمر مصائب الجيرة.. تفاقمت الأفكار بعد أن خرجت الفأرة من كيس الطحين محتجة، تعاني نقصا بمواردها الأولية، وهي ترفع بيرقا ابيض لم يعد هناك شيئا يؤكل، نرجوكم أن ترفعوا أيديكم عن الفضلات التي خصنا بها الربّ.. حجر الفراغ الآسن، يتدحرج باتجاهي من منحدر شاهق .. سريعا، فعلي أن احتاط. (تحية بالود والحب والأمل. كيف صحتك وبراءتك النبيه، لقد اشتقت

[١٠] مكان حرب أكلت النيران فيها ألوفا من البشر.

كثيرا إليك. أكاد اسمع صوتك ويخبرني بمفارقات الهمج والهمجية أكاد اسع النفس الهادر الذي يملأني إصرارا على الحب الكبير داخل عقلي وقلبي إليك والى كل المخلصين كانت ساعة لقائي بك بعد أن اقتربت المواعيد التي بيننا، صرنا معا نتخاطر [بريد باراسايكلوجي] بعيدا عن الأذن الخانفة للفأر المذعور الذي ستناله قططي الشرسة، ولكم أنا سعيد بانتظاري لتلك اللحظات. اتصلت بك أيتها العزيزة اكثر من مرة، ولم أجدك بعيدة عن الأوراق المقتطعة من حلم آت، وقريب. لقد كتبت إليك شعراً يحوي قصائد بحرية تبلّ الزمن، ولا تبلى. قصصا منغمة بألف موعد رائع تصف الحس، وتعصف بالضمير الحي دون أن تأكلها العثة، أو أن تفهمها البغال النافقة. فما زلت اكتب أغنياتي على شجرة آس ناعسة عن الظلال المروعة، والأحلام المباحة.. بعيدا عن الأمنيات القاصرة بهذه الأزمنة المتهرئة، وسترين بأم عينيك الجميلتين كم أنا ممتلئ بالوعود، والاستعداد يجري للقصاص) .. لون لم تعرفه قواميس الألوان، ينتشر اليوم حولنا،ليته لا يكون الوباء. علي أن احتاط !. البكاء يأتيني، ولا ادري سببه. ربما أحس بالجوع، أو بالانهيارات الكبيرة

قد حدثت في داخلي. البكاء يأتي كومضة خاطفة. قطرة تسبق الأخرى كأنهما تقفزان مثل ضفادع صغيرة. بأقل من الثانية. وسقطت على الورق الذي أعددته لكتابة شيء يجلجل في رأسي، و يقفز مثل الضفدعة كعملاق كبير احتل عقلي بكامله، وبقي يصد عني بحركته الفوضوية العبثية مرة إلى اليمين، وأخرى إلى اليسار.. لم اكن أحس بطعم النوم، إذ نمت، أهدهده حتى ينام، واشرب، بثقل الحزن العريض الذي أحس به، ما زلت لا ادري سببا واضحا لبكائي، تعودت أن لا ابكي أمام أحد بعد الثانية والأربعين، ولكني صرت ابكي بصمت مبالغ فيه.. بكائي يعني حريقا من الداخل قد شبّ، لا أقوى على مقاومة ذلك الاندلاع الرهيب، ثمة قوى خارجية أقوى من قوتي الداخلية تبثُّ علي كل ذلك الرعب والفزع، و تحرق لي اعزّ وانشط الأعضاء في داخلي. لكنها لم تقترب أبدا من القلب، تخافه، تخاف أن يموت، وأموت أنا معه، فتخسر تلك القوى الخارجية جثة مواطنا حيويا في استقبال الحزن، ومستجيبا خانعا. يا لتعاستي.. دمعتان سقطتا فوق الأوراق المفتوحة كساحة إعدام،للبراءة.. جملية اكثر الورقة التي لم يكتب عليها.

(ربما لانها ستحمل كتابة احلم بها).. قطرتان تحدثان صوتا غريبا كأنه: صوت انتحار جماعي.. وجهه يطلّ علي كالصبح، أظنه خدعة، علي أن احتاط!. لا بد أن أنجز حكايتي لكم بهذه الليلة المتواصلة.. بموجز واحد للأنباء، رغم الليل الطويل الذي يناغيني بألف أغنية اعتقال، كان الليل من ذلك المساء طويلا للغاية. كنت أفزّ فيه من نوم لا يأتي.. المساءآت السيئة تذهب العقل، مليئة بالانهيارات، و الشيء بالشيء يذكر، كانت تمّر كغفلة هذه اللحظات. الكتابة شيء، التحقيق البوليسي شيء.. الكتابة تترك كاتبها مخنوقا ــ قبل أن يبدا الكتابة ــ والتحقيق يجعل من الشخص أنشوطة حبل مطوحا من اسفل إلى أعلى. الجدران تبصق عليها غائطا، الحشرات تزاحمها في اللقمة الحقيرة، الشمس تخاصم الأديم المفتح بألف شق وشق.. يصير صاروخا و يعبر بك إلى كل الآلام والمنغصات.. لا تدري من أين تحل عليك المنة، هذه الليلة السرطانية مفعمة بالأمل، و المواويل المليئة بالنواح. حظا سعيدا أيتها الليلة الداجية. كم أنا مفعم

بالارتباط بك.. أعطيك فرحا متوجا بالياسمين ومتضمخا بالحناء.. آه كم جميل أنت يا ليل السادس والعشرين[١١]، اعبر بك فاصلا من أوراق حزينة غارقة في لجّ من صمت عميق، كانت، قبل الليلة، لكنها اليوم صارت كرنفالا.. سأكتب فيك فرصتي واعلق زينتي على باب الدار أصافح أصدقائي بـ صراط سعيد أيتها الملايين[١٢].. (أني لأحبّ ربي حبا شديدا، فلو أمر بي إلى النار لما وجدت للنار حرارة مع حبه، ولو أمر بي إلى الجنة لما وجدت للجنة لذة مع حبه لان حبه هو الغالب[١٣]).. هو الذي يخلصني من كل داء ويصيب بالداء من كان جبارا مهيمن.. {اللهم نعوذ بك من فتنة الحصار، و أول انفتاحه. كما نعوذ بك من طمع مؤسسات الاستحواذ على الثروات، المتمسكة بتلابيبنا. كما

[١١] حدث عام ١٩٩٦م.. نزول مروع في سعر صرف الدولار الأمريكي.. و بدء العمل في مذكرة التفاهم..

[١٢] سرطان رئاسي أعلنته إذاعة لندن، يومها..كذبته الإذاعات علينا.. متباهية انه لم يصب حتى بزكام..

[١٣] رابعة العدوية.. راقصة وتصوفت..

نعوذ من أية عصبة متسلطة. اللهم لا تجعلنا ألعوبة لعراكهما، ولا لغيرهما انك السميع المستجيب}.. مسكونا بقيت أتأمل فراغا عابرا، كان لا بد لي أن أبوح بها في لحظة ما.. بالغة الحس عميقة المغزى.. كلفتني كثيرا من الخوف، الليل الطويل من حولي يمد جناحيه، و أنا محدودب إلى منضدة صغيرة لا يزيد ارتفاعها عن الأرض مسطرة واحدة ، وعليها شرشف بلون الورد نظيفا، وثمة قنينة بداخلها قطعة صوف مغمسة بالنفط.. فتيلا أوقده كلما انقطعت عني إضاءة (النيون) الوطني.. إلى عمق الورق. عيوني كلها غاصة في لجّ صمت عابر، الأماكن متباعدة. لا ادري من أين ستبدأ الأحداث، وكيف سترتبط. أني أعاني بهذه اللحظة من طول الانتظار.. الليل يحتاج إلى وصف اكثر جرأة، فالكتابة شجاعة، ومقدارها ميزة ما كتب.. (قبل شجاعة الشجعان[١٤])، اهو الرأي صورة صادقة لما عليه واقع الحال.. غياهب الصفحات الفارغة لا يسدها الكلام، ولا المعدة الفارغة سوف يسدها الكلام الفارغ.. (أجدني أجد ما

[١٤] بيت للمتنبي.. قدس الله سره.

لا اشتهي، واشتهي ما لا أجد وأنا في زمان من جاد ولم يجد، ومن وجد لم يجد[١٥])).. قبل أن تضرب (بكبن) ضربتها الأخيرة من نهاية اليوم الذي أكملت فيه الثانية والأربعين من عمري، سألت نفسي ماذا أنجزت بهذه السنوات. كان حرياً بيّ أن احصد ما زرعته، فالحق أن مثلي لابد أن يكون منتظرا زرعه الذي سيحصده.. خلال الأيام القليلة القادمة بالثمرات. {أيضني الخسرُ}، بعد السنوات.. ضياع قد أحبطني وجعلني ازفر بحرقة بالغة، ضاعت من العمر مسافة هائلة {اطلعت على ما توفر مصادفة من كتب في الأدب الإنساني، وحسب. كتب من سبقنا} بالحلم، والتخيل والهندسة التشكيلية.. {أخرجت تقول لنا ما حدث قبل قرن، ولم تقل لنا ما سيحدث غدا} بالغة الجمال، مرهفة الحس، عميقة الدلالة، ولكن أي خباز يعطي خبزه دون نقود؟. رنين الساعة يصل إلى أي بيت في {بعقوبة}، يتخلل الجدران والأرض والسقوف، ساعة قديمة، عرفت كيف تخترق

---

[١٥] ذكره الجاحظ.. قدس الله سره..

الشعوب، فأقسمت أن لا تفارقها أبدا، حتى وان صارت عبئا على الحكومات، ولن تعطيها صوتها:

ــ أصبحتم عباً يا شعب الخيرات على البلدان العظمى:

ــ انتم عبء على حكوماتكم الطيبة!.

ألوان متداخلة.. ظلال متسلسلة.. تدرجات ضوئية، متواصلة بتواتر متصاعد.. تتداخل الإذاعات و تكشف مدى الخيبة القاتمة. اضحك من الجمل الإنشائية التي تنسل من بعضها، و الاحتجاجية الأخرى، تكشف عن بعض اللعبة.. تميل مع ميل المائلين، أوتنحرف مع انحراف المنحرفين. ثمة حرب أخرى ستحدث بين مؤسسة استثمار نفط العراق، و الإيرادات الأخرى. لعنة الله على مقرريها، و سينتصر النفط على حامله.. {حاملُ الهوى تعبُ}.. اللحظة تربعت الخطبة السياسية على ورقة القصة التي من المفترض أن تحمل حدثا يسير كما يسير السائرون.. وان تتثبت في إطار زمني محدد، و زاوية سرد، محدداً الزمن الذي حكاياته الزهر في عطر الورد، فلطعم الحكاية التي نويت أن ارويها عبر اسطر مزقها القلق ــ حربٌ ــ متوقعة يشنها المذياع

عليّ منذ عشرات السنين [بلغة الهولولو] إنهدت كالبرج الذي ضربته الطائرة الملتاثة.

– (وراء الهتاف، وفي جزئيات كل ما يحصل من سوء)..

٥/آب/٢٠٠٤

المحتوى

١	زمن الرجل الآخر	٧
٢	زمن متوقف	١٥
٣	زمن بحجم الأفق	٢٠
٤	عيناك دوت كوم	٢٢
٥	خفة زمن	٢٨
٦	زمن مضى	٣١
٧	زمن الأبيض البريء	٣٤
٨	زمن فارغ للشمس	٣٧
٩	انفلات زمن	٤٠
١٠	زمن الكليلة	٤٥
١١	ولد وبنت وزمن	٤٧
١٢	لعبة زمن	٥٠
١٣	ما آل اليه	٦٤
١٤	غريم زمن	٦٩
١٥	زمن بارز	٧٢
١٦	زمن العزلة	٧٦

١٧ فاصلة زمن..... ٨١
١٨ روى بعض ما لم يرو بعض..... ٨٩
١٩ زمن علبة الحليب الفارغة..... ٩٨
٢٠ بساتين القلب اني مقيم بك زمنا..... ١٠٦
٢١ بقية زمن..... ١١٣
٢٢ زمن الابن..... ١٢٠
٢٣ رئيس سابق لم اعرفه..... ١٢٥
٢٤ زمن ما كان لي..... ١٣٥

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية

محمد الاحمد

كاتب عراقي ولد عام ١٩٦١ .

اصدر الكتب التالية :

★حركة الحيطان المتراصة (رواية) بغداد ١٩٩٨ .

★بعد الجمر .. قبل الرماد (قصص) دار الشؤون الثقافية ١٩٩٩ .

★جمرة قرار ابيض (قصص) بغداد ٢٠٠٠.

أ★ربغ وأربعون متوالية (قصص) ٢٠٠٠ .

★ما بين الحبّ والحبّ (قصص) ٢٠٠٢ .

★يكتب بشكل دوري دراسات أدبية في تحسس الأدب الجاد في الصحف والمواقع المحلية والعربية .

وزارة الثقافة

الغلاف: ياسر بدر طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة السعر: ١٥٠٠ دينار